18me; année No 882

LeCaire - 29 —5—1950

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العدد ٨٨٢ « القاهرة فى يوم الاثنين ١١ شعبان سنة ١٣٦٩ — ٢٩ مايو سنة ١٩٥٠ — السنة الثامنة عشرة »

أدب اللذة ...

أســـأل ويسأل معي كل قارىء يشفق على حاضر الأدب ومستقبل الثقافة : إلى أى طريق يدفع بنا أدب اللذة ؟ والمراد بأدب اللذة ما يسميه الفرنسيون اليوم : La délectation litteraire وهو الأدب الذى يلذ ولا يفيد ، ويسوغ ولا يغذى ، ويشغل ولا ينبه ، كالذى تقرأه فى أكثر الصحف وفى بعض الكتب من غرائب الأخبار، وطرائف النوادر، وتوافه المعارف، مما يجذبك عرضه ويلذك تصويره ويلهيك موضوعه ، فإذا فرغت من قراءته وسحوت من خدره ، لا تجد له أثرا فى نفسك ولا حاصلا فى ذهنك

طغى هذا الأدب على أوربا من بعد الحرب، فهزم الكتاب النافع ونفى البحث المفيد ، فثارت ثائرة أقطاب الكتاب ، وأمحوا بالنكر على معالجيه ومروجيه، وحاولوا أن يفتحوا أعين الناس على أخطاره بما نشروا وأذاعوا ؛ ولكن العلة كانت أفدح مما ظنوا ؛ فان الأعصاب التى أوهنتها الحرب بفظائعها وفواجعها لم تعد قادرة على معاناة الجد واحتمال التقصى ، فرجعوا يتحاورون ويتشاورون ويطلب بعضهم إلى بعض أن يدسوا العائدة فى اللذة ، ويدوقوا المرارة بالحـــلاوة ، تهوينا على الأعصاب المنهكة ، وتسكينا للنفوس القلقة

ذلك هناك ، أما هنا فالأمر مختلف . لا أعصابنا موهونة من حرب ، ولا نفوسنا قلقة من ضيق ؛ انما هو الثقافة الخاوية، والأمية الفاشية، والتربية المهملة، والصبر الفارغ، والطبع الـؤوم، والهوى المتنقل، والوقت المضيع ، والحياة الهازلة ! خير ما فى المدرسة الألعاب، وخير ما فى المجلس النكت ، وخير ما فى الكتاب الأفاكيه، وخير ما فى الصحيفة الصور ، وخير ما فى النزهة التهريج !

فاذا كان الناس فى أوربا قد انصرفوا بعد الحرب إلى أدب اللذة ، فان ذلك وإن طال عرض سيزول ، وحال ستتحول ؛ لأن ثقافة النفس فى الغرب أصيلة ، وحب المعرفة فى أهله طبيعة .

أما القراء فى مصر فانهم إنما يكفون على هذا النوع من الأدب البهرج لأنه رضا السطحية الغالبة ، وهوى العامية العريقة . وعلاج هذه الحال لا يكون بالتنبيه والتوجيه ، وإنما يكون بتغيير العقلية وإصلاح التعليم وإعداد المعلم وتعميق الدرس وتعويد القراءة وتنشئة النفوس على استجلاء الغامض واستكشاف المجهـــول واستدناء القصى واستشراف الكامل ؛ وهو علاج يراودنا اليأس من قرب حصوله ، فلا بعضه فى اليد ، ولا كله فى الأمل !

إن أدب اللذة عندنا هو الأصل ، وما جاء على أصله لا يسأل عن علته ولا يتعجب من وجوده . وإن أدب المنفعة عندهم هو الأصل ، وما خرج عن أصله تناصرت كل القوى على كف ضلاله وكبح شروده .

احمد حسن الزيات

مذكرات بادليـــو
عن الحرب الحبشية

الأستاذ أحمد رمزي بك

وقع بين يدى أول أمس ملخص كتبته عام ١٩٣٧ عن مذكرات المريشال بيترو بادليو القائد الايطالى عن حرب الحبشية. وضع القائد مذكراته فى كتاب عقب دخوله مدينة أديس ابابا، وقدمه إلى الزعيم موسوليني، وكان هذا كافياً أن يثير رغبتى فى الاطلاع عليه بعد أن قضيت الشهور فى قراءة خطب موسوليني ومقالاته. ويعترف صاحب الكتاب بأن ما كتبه لا يعد تاريخاً رسمياً للحرب لأن هـذا التاريخ يتطلب مجهوداً طويلا وجمع معلومات متفرقة، ولا ينتظر الفراغ منه قبـل سنوات عديدة. ولكن الكتاب مقتصر على مجرد سرد لحوادث القتال فى اثيوبيا، كما كانت تبدو لبادليو القائد العام الايطالى، وهو ينظر للحوادث من قمة عالية، فهو يعرضها بطريقة اجمالية عامة كما يراها بنظرته الشخصية كانسان، فيشرح الحرب وأدوارها كما كان يراها فى مركز قيادته، وهو لا يتأخر أن يكشف عما كان يجول بخاطره: من إقدام وتردد، ويعرض علينا بصراحة طريقة تفكيره، وتطور هذا التفكير ثم مسايرته للحوادث. وقال إن الفكرة الأولى التى أوجدها وألزم نفسه بها هى إحراز النصر على أى وجه يكون، فكانت هذه الفكرة راسخة لديه رسوخ العقيدة التى تسلطت على لبه، وكان يستمد منها دوافع العمل والتصميم والأخذ بالقرارات الحاسمة السريعة، فلم تفارقه هذه العقيدة فى أشد الأوقات والأزمات، وانتهى بها إلى قيادة القوات التى وضعت تحت إمرته بالنصر والظفر إلى النهاية.

ويقول بادليو فى كتابه: «لعل أعظم ما واجه المسئولين عن قيادة الحرب الحبشية، هو ضرورة الحصول على نصر سريع حاسم بأقصى سرعة ممكنة، لأن عامل الوقت كان يعمل ضد ايطاليا» وقد كتب موسوليني فى مقدمة الكتاب ما يأتى: «ان غاية كل حرب هو أحراز النصر؛ أما الحرب الحبشية فكانت تستلزم فوق هذه النتيجة الحتمية أن يكون أحراز النصر كاملا فى غير ابطاء أى بسرعة فائقة».

والمتتبع لحرب فلسطين يتفق معى فى أن إحراز النصر فيها، كان يستلزم السرعة الفائقة والوصول إلى احتلال أكبر مساحة فى أقصر وقت ممكن، وهذا ما لم يلتفت إلى تحقيقه المسئولون عن حملة فلسطين.

ويقول بادوليو إنه تولى القيادة فى ١٥/١١/١٩٣٥ ودخل عاصمة الحبشة فى ٥/٥/١٩٣٦ فكأنه لم يأخذ فى العمليات التى قام بها سوى ٤ أشهر وأيام معدودات.

وللوصول إلى نتيجة مثل هـذه حشدت ايطاليا أكبر قوة عسكرية فى القارة الافريقية إذ جمعت ٣٠٠ ألف مقاتل ايطالى و ١٠٠ ألف عامل وقوة من الطائرات عمادها ٤٠٠ طائرة كما جمعت أكثر من ١٠٠ ألف من الجنود الافريقية اللونة (السمر والسود) — وكانت العمليات الحربية التى قامت بها تتمثل فى اتساعها وتفرعها أكبر حرب للاستعمار رأتها القارة السوداء حتى ذلك التاريخ. فاذا أضفنا وسائل الفن الحديث للقتال وسوق الجيوش وتعبئتها ونقل المؤن وانشاء الطرق جاءت هـذه الحرب بمثابة فتح جديد للحروب الافريقية.

ولهذا فأن الدراسات التى قامت على معارك حرب الحبشة كانت ذات أهمية خاصة. ولا أتهم بالمبالغة إذا قلت أن قواد الحلفاء الذين خاضوا غمار الحرب العالمية الثانية استفادوا كثيرا من دروسها. ثم أقول أنه من دروس الحرب العالمية الثانية ومعاركها فى القارة الافريقية ما يدعو أيضا إلى الاستفادة من ناحية الاستعداد للحرب ووضع خططها فى المستقبل: لأن عمل كل فئة استفاد منه من جاء بعدها وهلم جرا ...

ولقد تبين لى من الاطلاع على ما كتبه بادوليو أن ايطاليا كانت تضع الخطط منـذ سنوات طويلة للحصول على النصر فى الحبشة فى حالة اشتباكها بالحرب معها — ولقد أخـذت أهبتها منذ سنة ١٩٢٥ فبدأت تعيد النظر فى أنظمة الجيش وتهيئة قواتها العسكرية بالاستعمرات.

واختارت لاتمام هذا العمل الانشائى نخبة من ضباط الجيش الذين يعملون بهدوء وصمت : ومداومة وعناد .

وكان أول ما اهتمت به فى نظامها الانشائى العسكرى تكليف وزارة الأشغال العامة بانشاء شبكات محكمة لطرق المواصلات فى اريتريا والصومال توصل إلى الحدود الحبشية . (١)

وكان الاتصال دائما بين رئيس هيئة أركان حرب الجيش الايطالى ووزارة الخارجية مباشرة — والمتولى بادوليو هذه الرئاسة كان يخول إليه حق الاطلاع باستمرار على دقائق العلاقات السياسية وتطورها بل يؤخذ رأيه فى أهم ما يدور البحث فيه بين بلاده وامبراطورية النجاشى .

وكان من واجبه أن يرقب بانتباه وعناية تامة كل حركة يقوم بها النجاشى لتنظيم بلاده سياسيا أو محاولته تركيز السلطة فى يده ، وكان من أهم ما تخشاه ايطاليا هو أن تنجح الحبشة فى مشروعها الذى يرمى لايجاد جيش منظم على الأساليب الأوروبية ومزود بالأسلحة الحديثة ، فينتهى النجاشى أن يوفق فى الاستفادة من مزايا وصفات قومه الحربية وطبيعة أرض بلاده .

وكانت الحبشة خالية تماما من تلك الطبقة الممتازة من الضباط الوطنيين الذين يفكرون بتفكير الأوروبيين أو يعرفون طرق الحرب الحديثة وخاصياتها وما تتطلبه من فن ومقدرة ، وما تستازمه من نظرة نافذة واعية ، حتى يتمكن أصحاب هذه المهنة من وضع الخطط الحربية وتنفيذها .

ويذكرنى هذا بما قرأته عن كلام مصطفى كمال الزعيم التركى الذى أسند أسباب نهضة تركيا الحديثة إلى تلك النخبة من الضباط العظام الذين لولا نظرتهم الايجابية اضاعت بلادهم كما ضاع من قبل استقلال بخارى ومراكش وتونس ومصر : فهذه النخبة من الضباط الذين يجمعون بين العلم والفن العسكرى الأوروبى ، والجرأة المستمدة من الشعور القومى هى التى كان بوسعها انقاذ البلاد ، وهى التى اطمأنت ايطاليا من عدم وجودها ولم يكن هناك من يحل مكانها لأن ادراك الساسة الأمور محدود ، ونظرتهم قاصرة وكل هذا يبعدهم عن فهم الحقائق وضرورات العصر الحالى فكانوا يحضرون انفسهم للهزيمة والابادة .

ويقول بادوليو إن النجاشى أخذ فى السنوات الأخيرة يلجأ إلى الاستعانة ببعض الاخصائيين من الأجانب الذين لبوا دعوته وقاموا برسم له الخطط ، فاشتد قلق السلطات الايطالية خوفا من أن تستعد الحبشة عسكريا تحت اشراف هؤلاء الضباط الأوروبيين — فتنشىء لها جيشا وطنيا قد يقف عقبة فى سبيل اطماع ايطاليا أو يزيد مشاكل الفتح وتكاليف الحرب القادمة . ولذلك رأت الحكومة الايطالية أن الساعة قد أزفت لمراجعة المسألة الحبشية بالفصل فيها قبل أن يستفحل أمرها : وأن تضرب الحبشة ضربات حاسمة وبسرعة لكى تضمن تصفية هذه المملكة تصفية نهائية وبطريقة لا تمكنها من القيام مرة أخرى .

ويستمر بادوليو يحدثنا عن الحبشة فلا يستهين بها وانما يقرر أن المعلومات كانت تصل إلى ايطاليا باستمرار من أنحاء البلاد المختلفة عن كل صغيرة وكبيرة فيها وقد أدى جمع هذه المعلومات وتصفيتها بيد الخبراء إلى أن اثيوبيا بوسعها أن تجند قوة محاربة تتراوح بين ٤٠٠ و ٢٥٠ ألف مقاتل وأن تحشدها فى الجبهة الشمالية وأن تسوق قوة أخرى تتراوح بين ٨٠ و ١٠٠ ألف مقاتل لجبهة الصومال الايطالى وفى طاقة البلاد تكوين احتياطى من القوات المقاتلة لشد أزر الجيشين : أما من ناحية التسليح فقد أتت الأخبار الموثوق بها تقرر أن القوات مزودة بأسلحة حديثة خفيفة ولكنها من عيارات وطرز مختلفة مما يسهل وقوع الاخطاء فى استعمال الذخيرة : (يلاحظ أن الدول الغربية كثيرا ما تلجأ إلى هذه الوسيلة بالذات لعرقلة القوة المقاتلة لدى الأمم الشرقية وهى : ناحية تعدد أصناف الذخيرة وتعدد أنواع الأسلحة المختلفة العيارات لما يلازم هذا التنوع من اخطاء فى توزيع الذخائر على الوحدات المقاتلة)

وجاءت إلى رئاسة أركان حرب الجيش الايطالى معلومات دقيقة عن كافة أنواع الأسلحة التى شحنت فى السنوات السابقة للحرب من مدافع وبندقيات رشاشة وأسلحة للمشاة ، وعدد الطائرات والسيارات المدرعة وما جاء للمدفعية من مدافع ميدان ومدافع مضادة للطائرات — مما أمكن أن يعطى فكرة عن محاولة انشاء قوة من المشاة على الأقل منظمة على الأسس الأوروبية .

ولكن المطلعين على الشئون العسكرية كانوا على ثقة تامة

(١) سبق لى تنبيه السلطات المصرية بتقرير مفصل عن ذلك

من عجز الحبشة عجزا تاما وعدم قدرتها على توجيه أية حملة كاملة الأهبة والاستعداد لا كتساح إحدى المستعمرتين الايطاليتين. وذكر بادوليو تبريراً لهذا العجز سببين أساسيين - الأول مادى راجع إلى طبيعة الأراضى وخلوها من طرق المواصلات التى تسهل الحشد وتمكن من سوق الجيوش وحشدها فى أماكن التجمع اللازمة لها

الثانى أنه إذا وجدت هذه المواصلات فالبلاد مفككة داخليا وظروفها السياسية والاجتماعية لا تمكنها ، من أخذ هذا العبء عليها. وأخيراً فهى خالية من كل المسائل المادية والأدبية التى تجعل تجهيز هذه الحملة موضع تفكير .

إذن فهو مطمئن إلى أنه صاحب اليد الأولى فى توجيه الحرب الوجهة التى يريدها وهى بطبيعة الحال ستكون هجومية من جانبه ، دفاعية من الجانب الآخر .

وان تكون حربا ثابتة وراء الأكمات والحصون والخنادق بل ستكون حرب حركة فى أعلى مظاهرها فهى ، فى حاجة إلى إحكام التدبير والخطط وستحتم احتلال أماكن بعيدة والتوسع فى الزحف بشكل غير معهود فى السابق بل تفرض اشغال العدو وأحكام المباغتة والاستعداد لأخذ القرارات السريعة الحاسمة وما يستلزم ذلك من الجرأة والثقة فى النفس حتى يضمن القائد سرعة التقدم وضمان الوصول إلى الهدف المعين فى الوقت الذى تحـــدده القيادة العامة .

لهذا كله يشير بادوليو فى القسم الأخير من كتابه إلى أن أول أمر تستلزمه حرب الحركة والا كتساح هو ايجاد قواد أكفاء ذوى شجاعة للاضطلاع بالمسئوليات الكبرى وليس من السهل العثور على هذه الفئة الممتازة فى أى جيش أوروبى إذا لم يدرب أفرادها من البدأ لهذا الغرض وتعطى لهم حرية واسعة للعمل وقت التدريب وأن يكون الاختيار منصباً أولا على الكفاءة والاستعداد الشخصى فليس كل ضابط يصلح لهذا الاختيار وليس كل قائد لديه الاستعداد الشخصى لمثل هذه الأعمال :

وقد نجح فى إيجاد قوة من الضباط الأكفاء من الناحية الفنية أى فى القيادة ، وفى وضع الخطط للتعبئة وسوق الجيوش ، وقد أشرف بنفسه على امتحان معلوماتهم ، وعرف عن كثب مدى ادراكهم للأمور ، ولذلك مهد لهم طرق الاشتراك فى الحرب الحبشية مشيرا إلى أنها الفرصة الوحيدة التى سنحت لهم لأظهار صفاتهم العسكرية الممتازة ومقدار ما وصلوا إليه من معلومات وما أتقنوه من فن عسكرى .

وأشار إلى ما لازم ايطاليا من توفيق فى تكوين جيشها (بكادر) أى مجموعة هائلة من ضباط الصف الذين لهم دراية خاصة ومقدرة على فهم التنظيم والعمل بوحيه وروحه وهى صفات تستلزم المران الطويل ويخلقها ويبرزها التدريب الفنى والتربية العسكرية المبنية على أداء الواجب: وقال ان هذا الكادر هو عدة الجيوش المحاربة.

وهكذا استمر المريشال الايطالى يحدثنا بأسلوبه الشيق ويقول إن الحرب الحبشية كانت تجربة ولكن قاسية دخلتها دولته وخرجت منها منتصرة بفضل العناية التى بذلت فى رفع مستوى الجنود والضباط على السواء. وقال أنها كانت فى وجهة نظره مواجهة المجهول والتغلب على أشياء غير منتظرة ، ولا مفروض وقوعها. وكان كقائد واقعاً تحت تأثير الزمن كعامل فعال فكان يطلب إليه اتمام عمل معين بأقصى ما يتطلب من السرعة وفى أقصر وقت؛ وكان يضع خططه ويجهز نفسه لسوق وحدات بقصد احتلال مراكز معينة ، فتصدر إليه أوامر من روما بتغيير الخطة والسير بغير أمهال لناحية أخرى، فكان يلبى هذا الأمر ولكنه يسير بوحى نفسه فلا يغير خطته الأولى متحملا المسئولية إلى النهاية.

قال إن أكبر عوامل النجاح هو التنظيم الذى مكنه من عمل المستحيل والذى بدأ بتفريغ ونقل ملايين الأطنان من الذخائر والمؤن فى بلاد لم تستعد لتلقى هذه الكميات الهائلة من العتاد ، ثم سار فى التغلب على الطبيعة بانشاء الموانى والأرصفة والطرق والكبارى وتحريك نصف مليون رجل ودفع ملايين من الدواب وآلاف السيارات . كانت الحرب آلة محكمة الوضع ، ولذلك تغلبت على العقبات وأحضعت الطبيعة. وتلمح من ثنايا كلماته: إن أرادته تغلبت فى النهاية على أوامر روما وما تحمله من متناقضات وجهل بشئون الميدان ، وقرر أن مثل هذه المصاعب أولى مظاهر الشاكل والمتاعب التى تواجه القائد فى الحروب ، والتغلب عليها أول مظهر لصفات القيادة الحاسمة الجريئة التى إذا وضعت الأقدار بين يديها مقدرات المعارك والحروب فعليها أن تستفيد

تفـــــريط

للدكتور محمد يوسف موسى

تفريط نحس به حيث تكون ، ونحس به حيث تلتفت حولك . تفريط من كل طبقة وفريق : طبقة الطلاب ، وطبقة الشيوخ والأساتذة ، وطبقة السادة رجال الإدارة والرياسة. تفريط من كل هؤلاء وأولئك ، إلا من عصم الله وهم قليل نادر . ولولا ذلك ، لصار الأزهر منذ أزمان وأزمان تاريخا من التاريخ ، ولصار يتحدث عنه كما يتحدث عن كائن طالت به الحياة ، وأثر فيها وتأثر بها ، ثم صار أثرا بعد عين وعظة في الحاضر والمستقبل !

نعم ! ذلك حال الأزهر اليوم ، وقد نشأ أول أمره مقرا للدعاية لمذهب ودولة ، ثم — لفرط حيويته — تمرد على ما أريد به وله ، فصار منارة عامة ترسل أشعتها هنا وهناك في أرجاء العالم الإسلامي ثم تقدم به الزمن فصار، فترة طويلة من التاريخ ، المعين الوحيد للمعرفة والعلم ، وصاحب الأثر الكبير في تصريف شؤون البلد والقول الفصل في المشاكل التي تجد. وكان من رجالاته من عرف التاريخ لهم فضلهم ، إذ عرفوا لأنفسهم كرامتهم وللعلم حقه ، حتى كان منهم من رفض أن يمد يده لصاحب السلطان، بعد أن لم يرحرجا في أن يمد بحضرته رجله ! ثم مرت أزمان ، وجاءت أزمان ، وإذا بالأزهر لا يلتمس رأيه فيما يجب أن يكون له الرأي فيه ، حتى لقد غدا كما يقول الشاعر :

ويقضي الأمر حين تغيب تيم ولا يستأذنون وهم شهود

وأحب قبل الكلام الجاد فيما أنا بسبيله ، أن أسارع فأطمئن المشفقين من الأبناء الأوفياء والزملاء الأفاضل ، هؤلاء وأولئك الذين يخافون على عقبي صراحتي في زمن يتهم فيه كل صريح ، أنني ، علم الله ، لا أقصد بحديثي هذا رجال عهد معين قرب أو بعيد ، إنما أعني الأزهر ورجاله في هذا العهد الذي نعيش فيه منذ سنوات وسنوات . وأنسب بالذي يتقص إخلاصه لقضيته الأستاذ الأكبر عن أشد الناس حباً له واتصالا به . غير أني صريح بحكم منبتي وطبيعتي، وحديث عهد ببلاد تصدع بالحق متى عدبت له ، وأشعر في قوة بما علي وعلى أمثالي من تبعات الأزهر في حاضره ومستقبله ، تبعات لا يفتأ الإخوان يذكروننا بها في كل مناسبة .

فليهدأ، إذاً ، بالاً الأبناء والإخوان المشفقون، فالله متم أمره ، ولن يقف حذر دون قدر . ولست بما أقول ، اليوم أو بعد اليوم ، إلا في مقام الناصح الأمين. وليس مثلي — وقد جاوز مثلي خمسين — بأقل من أن ينصح بما يراه حقا ، وليس إنسان مهما علا قدره بأكبر من أن يتقبل الرأي الحق يتقدم به ناصح أمين .

* * *

١ — لطلاب الأزهر في الكليات والمعاهد مطالب يضربون من أجلها عن الدروس فترة طويلة كل عام ، ويلحون في سبيل تحقيقها ملتمسين كل مايزون من سبل ووسائل . وهم جميعا لا يكلف أحدهم نفسه النظر فيما يطلبون : أحق كله ؟ أو يلتبس فيه الحق بالباطل ؟ وهل رائدهم الإخلاص فيما يرجون ؟ أو هي أصابع الفتنة تدفع بهم في غير الطريق السوي ؟

ويحاول هؤلاء الطلاب المساكين التماس عون أساتذتهم وشيوخهم فلا يجدون منهم إلا ازورارا وإعراضا ، لأنهم يخافون التهمة بتحريك الطلاب ، أو لأنهم لا يعرفون كيف يوجهونهم سواء السبيل . والمشيخة من ذلك في شيء من الحيرة والكرب؛ لا تقدم إلا إذا اشتد الخطب ، ولا تفور إلا تحت الضغط .

ولو كانت الأمور تجري عندنا في الأزهر على استقامة ، لكان يسيرا كل اليسر على أولي الشأن في الكليات تعرف ما فيه الخير للطلاب في ثقافتهم ومستقبلهم ، والأهداف التي يجب أن يعدوا

منها وإلى النهاية .

أن الأقدار تأتي بها مرة واحدة في حياة الشعوب والقادة ولن تتكرر مرة أخرى فمن العبث التردد والوقوف والتراجع إزاءها لأنها تخضع للمثل اللاتيني القائل .

Audaces Fortuna juvat

ان الحظ يبتسم دائما لأصحاب القلوب الجريئة والنزائع الصادقة

أحمد زكي

مراقب عام مصلحة التشريع التجاري والملكية الصناعية

الإعداد الطيب لبلوغها ، ووسائل تحقيق هذه الأهداف. وحينئذ لا يكون الطلاب ما يشكون منه ، وما يضربون عن دروسهم من أجله .

ولو كانت الأمور تجرى عندنا فى الأزهر على استقامة ، من الطلاب والأساتذة وأولى الأمر ، لكان للكليات « اتحاد » كاتحاد الكليات فى الجامعة ، ولكان هذا الاتحاد وسيط خير بين الطلاب والمشيخة ، ولكان وسيلة يمرن بها الطلاب على المشاركة فى إدارة شئونهم ، وعلى المسئولية والاضطلاع بها . ولكن كيف السبيل إلى تكوين مثل هذا « الاتحاد » ، ومن إليهم الأمر يظنون كل صيحة عليهم ، ويرون فى تكوين هذا « الاتحاد » بدء ثورة وانقلاب ؟! ثم كيف السبيل إلى مثل هذا « الاتحاد » ، ومن الشيوخ من يستحل اتخاذ الطلاب الأبرياء وسيلة لقضاء حاجة أو حاجات فى نفوسهم ! ومن أجل هذا يزور المدرسون عن الطلاب ، فلا يرى الطلاب — وقد حرموا التوجيه الصالح — إلا أن يصدروا عن عقولهم التى تنقصها الإحاطة بالأمور ، وعن خبرتهم وتجاربهم وهى ناقصة ، وعن مطالبهم الخاصة دون رعاية للحق أو للصالح العام فى نفسه .

٢ — وبعد الطلاب ، الذين شغلتهم الامتحانات والاستعداد لها عن مطالبهم ، جاء بكل أسف دور المدرسين والأساتذة .

نعم ! ها هى ذى المعركة حامية الوطيس بين فريق المدرسين فى المعاهد والكليات ، المعركة التى استعمل فيها كل سلاح وإن رغم الحق ! المعركة التى وصل أمرها للصحف والديوان الملكى وللبرلمان أخيرا كل فريق يدافع — على طريقته — عن حقه وكيانه ومستقبله ، ويرى كل الوسائل مشروعة ما دامت تحقق الغاية أو تدنى منها. وفيما بين هؤلاء وأولئك تضيع كرامة الأزهر ، وتتزلزل سمعته فى مصر والعالم الإسلامى كله .

ولو كانت الأمور تجرى فى الأزهر على ما ينبغى من عدل واستقامة لصدر منذ طويل « كادر التدريس » حين صدر القانون بإنشاء الكليات . وإذاً ، لعرف كل من أعضاء هيئة التدريس حقه ، ولوضع فى موضعه الذى تؤهله له دراسته وكفايته ، ولما كان من الممكن أن تقوم هذه الخصومة العنيفة بين الإخوة الزملاء أبناء المعهد الواحد ، ولشغل الكل بالبحث والإنتاج العلمى الذى تخلفنا فيه حتى صرنا ساقة بعد أن كنا القادة .

ذلك ما كان يجب أن يكون ، لولا اشتغال الرؤساء بالحاضر ، يصرفون مسائله فى ارتجال ، عن المستقبل — حتى القريب منه — يمدون له بالابد منه من عدة ووسائل . ولله الأمر من قبل ومن بعد !

٣ — وفى الأزهر اضطراب شديد أيضا فيما يتصل بعدم تركز السلطان وتصريف الأمور فى المسئولين وحدهم بحكم مناصبهم ، بل صار نصيب كبير من هذا إلى غير هؤلاء المسئولين ، فعظمت البلوى وعمت الشكوى .

ولو كانت الأمور تجرى عندنا على استقامة ، لأنشىء منذ زمن طويل مكتب فنى بالرياسة يكون لأعضائه من الثقافة والكفاية والروح الأزهرية والحب للصالح العام ، ما يجعلهم أهلا بحق لاقتراح المشروعات التى تفيد الأزهر ، ولبحث ما يحال إليهم من مشاكل ، ولتقديم المشورة الطيبة فيما يجد من أمور .

ولو كانت الأمور تسير عندنا على ما ينبغى ، لوضعت منذ طويل قواعد عامة للنقل للكليات ، ولكان من هذه القواعد ألا ينقل مدرس — مهما كانت درجته العلمية — من الثانوى لكلية من الكليات إلا إذا شهد له بالعلم والبحث مؤلفات منشورة

ولكن ؟ منع من هذا وذاك فيما مضى ، وربما يمنع منه أيضا هذه الأيام وفى المستقبل ، ما ركب فى النفس من حب الاستئثار بالبت فى كل أمر وبالاعطاء والمنع . ولعل الله ينظر للأزهر نظرة رحمة فيغير من هذا كله .

٤ — وقد نظر الله للأزهر فى بعض ما مر به من عهود ، فألهم القائم بأمره حين ذاك — وهو المغفور له الأستاذ الشيخ المراغى — أن يرسل بعوثا لأوربا يقبسون من علم الغربيين وطرائقهم فى البحث والدرس ! ومضى الزمن ، وعادت البعوث من فرنسا وألمانيا وانجلترا ، وانتظر الناس أن ينتقل الأزهر خطوة إلى الأمام ؛ وحق لهم أن ينتظروا فى ثقة واطمئنان. ولكن ، ها هو الزمن يمر ، وها هو الأزهر فى جملته يسير نفس سيرته قبل أن يكون له أعضاء بعثات جمعوا بين ثقافة الشرق والغرب . نعم ! ها هو الأزهر لا يزال كما تعهد من قبل فى مناهجه وطرائق التدريس فيه وعدم غنائه فى علوم الدنيا والدين .

الفيزيوقراطيون . .

Les phyiocrates

للاستاذ محمد محمود زيتون

سادت فرنسا فى القرن الثامن عشر موجة فكرية تدعو إلى الطبيعة Nature واشتدت هذه الموجة بفضل ما كتبه أدباء فرنسا ومفكروها سواء صدروا فى كتاباتهم عن الإنجليز المعاصرين أمثال لوك Locke ، أو تأثروا بحالة بلادهم فتمثلوها وترجموا عنها أدبا وفلسفة واقتصادا وسياسة إلى غير ذلك من نواحى النشاط الإنسانى .

ترددت تلك الدعوة إلى الطبيعة على كل لسان وقلم ، وامتزجت بها كل وحدة من وحدات المجتمع الفرنسى . وكان من بين تلك الدوائر جماعة الطبيعيين « الفيزيوقراطيين » الذين كانوا خير من تبنوا هـذه الدعوة وأعوها وأوصلوها إلى نتائج وقفت الحضارة الفكرية عندها طويلا ، لأن هذه الجماعة سوغت لنفسها أن تتخذ « العلم العام المجتمع » مذهبا لها .

نشأت هذه الجماعة فى فرنسا حوالى سنة ١٧٥٠ م وكان مؤسسها « كسنى Quesnay » الذى ساهم فى قيامها بكتبه التى تحوى جميع العناصر الرئيسية للمذهب ، من ذلك : مبدأ الحق الطبيعى ، ونظرية الإنتاج الزراعى الخالص ، ونظرية الشركة العادلة بين الملاك والمنتجين ، ونظرية الاستبدال الطليق ، ونظرية الحكومة الاستبدادية المستنيرة . وقد انتشرت هـذه التعاليم بحذافيرها حينا ، ومعدلة حينا ، ومغيرة حينا فى خارج

ولماذا ؟ لأن المشيخة لم تحب ، ولا تحب ، أن ينتفع الأزهر بمبعوثيه ، لأنها لم تحب ، ولا تحب ، أن تستعين بهم — كما تفعل الجامعة ووزارة المعارف — فى التوجيه الصحيح فى المعاهد والكليات ؛ لأنها لم تحب ، ولا تحب ، أن تجعل لهم الإشراف على ما يواجه الأزهر هـذه الأيام من الاتصال الشديد بالعالم الإسلامى والعالم العربى فى أوربا وغير أوربا .

وبهذا ، صار للأزهر شكل الجامعة ، دون أن يكون له حقيقتها ، ما دام لا يسير على نظم الجامعات ! وصار له أعضاء بعثات حازوا أكبر الدرجات العلمية من الأزهر ومن أوربا ، ولكن لا يحاول أن يفيد منهم! وأصبح من العبث إرسال بعثات أخرى ، تكلف أعضاءها كثيراً من الجهد وتنفق عليهم كثيرا من المال ، حتى إذا عادوا تركوا دون الإفادة منهم كإخوان لهم من قبل !

* * *

إن الأزهر لا يسير منذ سنين طويلة فى الطريق الصحيح ؛ وتلك حقيقة تعرفها الأمة وقادة الرأى فيها، كما يعرفها الأزهريون أنفسهم. وإن من دلائل ذلك ما نراه من تخلف الأزهر فى ميدان الإنتاج العلمى، حتى حين يتصل بالتراث الإسلامى. وإن من دلائل ذلك عدم القدرة حتى الآن على عرض الإسلام عرضا سليما واضحا يجد فيه العقل رضى والقلب هدى ، ونتعرف منه الرأى الحق فى المشكلات الاجتماعية والاقتصادية التى تنوعت كثيراً هذه الأيام .

وإن من دلائل ذلك ما حدثنى به جمع من تلاميذى ، من أنهم لا يحسون الأمة تضمهم فى المنزلة التى تضع فيها طلاب الجامعة . ذلك بأن الأزهر ، كما قلت أول الحديث ، تسوده روح التفريط : تفريط من الطلاب فى الإخلاص للعلم ، وتفريط من الأساتذة فى مديد العون لهم وتوجيههم الطريق السوى، وتفريط من الرؤساء — إلا من عصم الله وهم قليل نادر — فى طلب الرأى ممن يراه وفى الاستماع للنصح حين يتقدم به الثقة الأمين .

ولعل الله يعرفنا الباطل باطلا فنجتنبه ، ويرينا الحق حقا فنتبعه . وأدعو الله لأستاذنا الأكبر شيخ الأزهر، قابسا من دعاء الدكتور طه حسين بك لرفعة سرى باشا حين كان رئيسا للوزراء فأقول :

رزقك الله سداد الرأى ، وألهمك صواب القول، وكتب لك التوفيق فى العمل ، وجعل سيرتك عزاء عن سيرة من كان قبلك ، ورضا لمن عاش معك ، وقدوة لمن جاء بعدك

محمد يوسف موسى

دكتوراه الدولة فى الفلسفة من السوربون
وأستاذ بكلية أصول الدين بالأزهر

فرنسا بل فى داخلها . وكل ما كتب بصددها فى المرحلة التالية للفيزيوقراطيين مباشرة إنما كان مستمدا من مؤلفات « كيسنى » وقائما على الأصول التى وضعها .

نعم سبقه كثير من الماديين ، وسار على نهجهم واعتنق بعض مذاهبهم ، وحقا إن « لوك » وغيره من الانجليز كانوا أسبق من « كيسنى » فيما ذهب إليه ، فلوك هو القائل بنظرية الحق الطبيعي ، والمدافع عن حرية التجارة ، ولكن هذه الآراء وإن تسربت كلها او بعضها إلى فرنسا إلا انها لم تعمل على خصوبة الفكر الفرنسى ، ولم تكن هى الباعث على قيام هذه المدرسة وتعاليمها ، وذلك لأن مركز فرنسا المادى حينذاك كان منحلا لما كانت تعانيه من فساد النظام التجارى ، فضلا عن انحطاط الحالة الزراعية والصناعية جميعا .

فى مثل هذه الحالة ، يتجه الاهتمام أول ما يتجه نحو « حقوق الانسان » التى تربطه بالمجتمع ، تلك الحقوق الطبيعية التى لا مصدر لها غير الطبيعة وحدها . ومن الواضح أن طبيعة الإنسان لها الحق فى كل شىء يتعلق بوجوده وسلوكه ، حتى إذا قام المجتمع كيان ، عانى هذا الحق تحديدا لا بد منه وقد يصبح هذا التحديد خطيرا ما لم تفسره صيغة الحق droit ، والصيغة الوحيدة لهذا التحديد المطابقة للعدالة والعقل مما هى حق كل فرد فى نصيب من الخيرات التى يستطيع أن يمارسها عن طريق العمل والخدمات العامة .

وبتحليل هذا الحق الطبيعى ينتهى إلى عنصرية : الحرية المطلقة ، والملكية المطلقة ، ولكن هذه الحقوق من غير شك تفترض تبادل الواجبات . واجب العمل ، وواجب احترام الغير ، وواجب العمل على خير الغير . وعلى ذلك ينبغى أن يكون القانون الوضعى تفسيرا لهذين الجانبين من الحق الطبيعى . وهكذا تنتظم الروابط بين الأفراد بعضهم بعضا ، ولكن يبقى تحديد موقفهم من المجتمع ليكون الحق العام متمشيا مع الحق الطبيعى غير متعارض معه ، وهذا يتطلب تنظيما .

عالج الفيزيوقراطيون هذا التنظيم ، فى الاقتصاد « ترتيب طبيعى » Ordre Naturel هو موضوع البحث فى المجتمع . وفى الاقتصاد قوانين طبيعية ، معرفتها أمر ضرورى ، وكاف لإقامة نظرية الإنتاج ، ونظرية الاستهلاك ، وهما النصفان اللذان يتألف منهما الاقتصاد .

ولم يكن « شارل جيد Ch Gide » حين قال « أداء الواجبات ، واستغلال الحقوق ، وإرضاء الرغبات ، تلك هى الأغراض الثلاثة المختلفة للنشاط الانسانى ، والأخير منها موضوع علم الاقتصاد ، ولذا نستطيع القول بأن الاقتصاد السياسى له أن يعالج الروابط بين الناس العائشين فى مجتمع من حيث تعمل هذه الروابط على إرضاء رغبات الحياة المتعلقة بالجهود العاملة على زويد الجميع بالثروة المادية » .

والأرض هى أساس الاقتصاد ، والقاعدة التى عليها يرتكز ، وحسب الفيزيوقراطيين أن يشاهدوا الطبيعة وأن يستمعوا لها ، فهى وحدها التى تفسر توزيع الدخل ، ودورة الثروة ، وقوانين المحصول الصافى وغير ذلك . ومن كل هذا استنبطوا نتائجهم ، وإن كانوا فيما بعد قد ظنوا أن القوانين التى يجب أن يتوجهوا إليها ، واضحة وضوح القوانين الطبيعية .

لقد تردد ذكر « الطبيعة » طوال القرن الثامن عشر . فعلى أى وجه ردده الفيزيوقراطيون ؟ إنهم اعتبروا فى الطبيعة جانبا ماديا ، وأرادوا أن يربطوا القوانين الأخلاقية والقضائية بقوانين فيزيقية ربطا مباشرا . يقول « ميرابو Mirebeau » لقد عولج الحق الطبيعي باعتباره حقا عقليا دون التفكير فى خضوع قوانين النفس لقوانين فيزيقية متصلة بها اتصال الجسم بالروح »

وهنا تختلف وجهة نظر الاقتصادى ، عن وجهة نظر الأخلاق ، فهنا يريد « ميرابو » الانتقال مما هو مادىّ إلى ما هو أخلاق ، وذهب إلى القول بأن « الناس تحكمهم الأشياء » C'est par les choses que les hommes sont gouvernés هذه الأشياء عند « ميرابو » هى « الحبوب les grains » إذ يقول « وكما أن حبة القمح مرآة تتحدث عن حكمة الخير الإلهى وعظمته ولطفه ، فكذلك هي مرآة تتحدث عن الكواكب والعوالم إلى ما ينتهى ، فينبغى كشف عظمة القوانين الإلهية بفخامة القوانين المادية » .

وهذه النزعة — وإن بدت مادية — إلا أنها فكرة فلسفية قال بها من الفلاسفة من قال بالعناية الإلهية ، وكذلك من اعتبر

دورة الثروة circulation de la richesse كالدورة الدموية ، من حيث لها قوانينها الطبيعية فى الحياة الانسانية .

وهنا نتساءل : لماذا اهتم الفيزيوقراطيون بالطبيعة والقول بالعناية الالهية ؟ الجواب سهل يسير ، ذلك أنهم رأوا فى الطبيعة قوة أسمى من قوة الانسان ، لأن عمل الانسان تافه ، أما الطبيعة فذات قوى منتجة هى عمل إلهى ، ونوع من المنحة والنعمة .

وجد الفيزيوقراطيون إذن فى القوانين المادية قوانين إلهية ، واستطاعوا فى جرأة وإقدام أن يربطوا بين النظام الأخلاقى والنظام الفيزيقى ، لأن فى نفوسهم استحسانا له مفعوله فيها ، ويفسر « كسنى » ذلك بقوله : « المقصود بالنظام الفيزيقى هو المجرى العام لجميع الأشياء الفيزيقية ، أى هو النظام الطبيعى الأكثر نفعا للجنس البشرى . وبهذا القول نكون قد وفقنا على جوهر المذهب الفيزيوقراطى ، إذ القاعدة العامة لكل عمل إنسانى تنطبق على أنفع نظام فيزيقى للانسان وهذه القواعد كلها تكون قانونا طبيعيا ، واضعه الله ، وهذه القوانين ثابتة دائمة ، وهى أحسن ما يمكن أن يكون .

بفضل هذا الاستحسان استطاع الفيزيوقراطيون أن يقربوا بين القوانين الطبيعية naturlles الضرورية وبين القوانين الفيزيقية physiques ، وأفهمونا بذلك الحقوق الطبيعية .

وكان مذهب الأحرار Libéralisme منطويا فى مبدئهم العام والخاص على وجوب ترك القوانين الاقتصادية حرة طليقة ، وعلى ترك الباب مفتوحا للتجارة الحرة ، فاشتهر فى الأوساط الاقتصادية مبدؤهم المشهور Laissez aire laissez passer ، أى « دع القوانين تعمل ، ودع التجارة تمر » وكان أيضا داعيا إلى القوانين الطبيعية ، والحقوق الطبيعية ، ومستتبعا لنظريتهم فى الطبقات théorie des classes

ولقد جاء الفيزيوقراطيون بفكرتين جديدتين هما :

١ — سمو الزراعة على التجارة والصناعة .

٢ — إيجاد « نظام طبيعى أساسى للمجتمعات الانسانية » كما يدل على ذلك نص عنوان كتاب الفيزيوقراطى الشهير « مرسييه دى لارفيير » Mercier de la Riviere

أما الزراعة فقد أعطاها الفيزيوقراطيون من الأهمية ما لم يعطوه لغيرها ، لأن الزراعة فى نظرهم ليست مصدر الغلة الصافية فقط ، بل هى المصدر الوحيد للثروة ، وما عداها عقيم Sterile والانتاج الزراعى أجل من غيره من الانتاجات لأن الأرض تحتوى على جميع أسرار سعادة الانسان .

والزراعة أولا وبالذات هى التى تخلق الثروة ، أما الصناعة والتجارة وسائر الحرف فكل عملها أن تحول الثروة ، وشتان بين الخلق Créer والتحويل Transformer ، ثم إن العمل الزراعى — دون سواه — يعالج المواد من أجل الثروة .

والتعدين والقنص والسباكة كل ذلك تابع للعمل الزراعى ويندرج تحت اسم « استخدام الطبيعة » ولو أمكن استخدام الهواء والماء لحسبهما الفيزيوقراطيون أيضا من هذا العمل .

وضع الفيزيوقراطيون لهذه الأعمال جداول ، ووضعوا لها قواعدها وشروطها ووسائلها ، أما التجارة فإنها لا تزيد من قيمة المنتجات بتحويلها ، فقالوا : « إنك حين تنصرف عن الحرث لتكون تاجرا ، فإن التجارة لن تجعلك تنتج قمحا » وأما الصناعة فهى كالتجارة تحول ولا تخلق .

ولنا أن نقول هنا إن ما يسميه الفيزيوقراطيون نظرية لا يعدو أن يكون مجرد رغبة أو رأى ، حفزهم إليه النزوع الأدبى قبل كل شىء ، وليس أدل على ذلك من كتابات « روسو » الأديب السياسى معا ، وقد سارت السياسة والأدب فى عصره جنبا إلى جنب .

والنفس بطبيعتها تنزع إلى الطبيعة بما فيها من وداعة واطمئنان بعد الشعور بالمادية الطاغية وعند النفور من لجب المدينة وضوضائها . على أن القول بأن الزراعة تخلق الثروة غير صحيح ، لأن الفلاح لا يخلق شيئا ، وإنما هو يحول فى المواد إلى التربة والهواء ويؤلف بينهما ، فهو يستنتج القمح من الماء والبوتاسيوم والسليكون والفوسفات والنتروجين ، شأنه فى ذلك شأن الصبان يصنع الصابون من المواد الدهنية والبوتاسا . وإذن

لا فضل للزراعة على غيرها من هـذا الاعتبار . ولذا لم يتردد « آدم سمث A Smith وغيره فى اعتبار الصناعة عملا منتجا ، بل أول عمل منتج ، وأكثر من ذلك فإن الخدمات حتى الفنية منها لم يتردد الاقتصاديون فى اعتبارها أعمالا منتجة .

وإذا كان رأيهم فى الزراعة — على النحو الذى بينا — يمثل المظهر الاقتصادى لمذهبهم ، فثمت مظهر اجتماعى له ، يمثله رأيهم فى طبات المجتمع ، وهو نتيجة محتومة للنظرة الاقتصادية .

فكما أن ما عدا الزراعة — فى نظرهم — عمل عقيم ، فكذلك كل طبقة ماعدا الزراع طبقة عقيمة . ولما كان الفلاح هو المساعد المباشر للقدرة الإلهية ، ومنون الأمة جميعها ، فهو وحده الذى يستحق أن يندرج فى قائمة المنتجين . يقول « ميرابو » فى هذا « إن الرجل الذى يجتهد فى استخراج محاصيل الأرض هو الرجل الأول فى المجتمع ، فكيف يستطيع الملك والقواد والوزراء أن يعيشوا من غير الفلاح ، وإن كان الفلاح يستطيع أن يعيش بدونهم ؟ »

كل الطبقات — مهما علت أو سفلت — عالة على الفلاح ، وليس الفلاح عالة عليهم ، وهذا ما سيقرره فيما بعد أنصار مذهب Tiers - Etat مثل « سيس » Seyes وأنصار الصناعة مثل « سان سيمون » S. Simon الذى قرر « أن فرنسا إذا فقدت الملك والوزراء فإنها لا تفقد شيئا ذا بال ، أما إذا فقدت النجارين والنساجين والعمال عامة تعطلت الحياة ، وفقدت كل شىء » . وهكذا يكون قد تابع « كنى » و « ميرابو » على نحو آخر .

ماعدا الزراع فى الطبقات عقيم ، لأنهم لايأتون — كالزراع — بإنتاج جديد ، إذ العامل والعاطل عندهم سيان ، وبذا ظل الفلاحون وحدهم المنتجين بمعنى الكلمة .

أما الملاك فلم يلق الفيزيوقراطيون بهم فى سلة الطبقات المهملة لأنهم حين أرادوا النهوض بالزراعة ، احتاجوا إلى رؤوس الأموال فوجدوها عند الملاك ، وبذلك كان مذهبهم مناهضا للاشتراكية Anti . Socialiste وهم — إذا حرموا العمال شرف الإنتاج فى الطبقات المنتجة — كانوا ضد العمالية Anti Ouvrieriste

وهم — حين أرادوا التقرب إلى الفلاحين واستغلال منتجاتهم — فتحوا الباب لمنح الامتيازات لهم ، بعدم دفع الضرائب ، والإقرار بأن الفلاحة من الحرف ذات الامتيازات .

وإذا كان من الواجب على الاقتصادى أن يحقق التضامن الاجتماعى بالقضاء على الفردية الهمة من جهة ، والطائفية الغالبة من جهة أخرى ، فإذا بالفيزيوقراطيين — وهم الساعون إلى الحقوق الطبيعية والمنادون بالحرية — يعملون على انحلال اجتماعى خطير ، بإقامتهم حواجز وفواصل بين الطبقات لا تعاون بينها ولا تضامن .

تطور المذهب الفيزيوقراطى — شأن كل مذهب — إلى لون سياسى اقتصادى فى آن واحد ، يناهض الاشتراكية ، وتوارثته الأفكار حتى انحدر إلى أتون الثورة الفرنسية ، وأجج نيرانها وعارض فلاسفة القانون .

قال « منتسكيو » بالسلطات الثلاث ، وألحقها « روسو » بالارادة العامة ، وحقا استنكر الفيزيوقراطيون الحكم الاستبدادى غير أنهم التمسوا العذر لأمبراطور الصين المستبد لأنه فى ساعة معينة من السنة يضع المحراث بنفسه فى الأرض يحرثها .

ومهما يكن من شىء ، فقد كانت هذه الأنظار الفيزيوقراطية إرهاصا بمجهود فكرى مجيد ، احتمله فلاسفة الاصلاح ، وعلى رأسهم (روسو) و (هوبز) و (منتسكيو) وقد أفادوا من المذهب الفيزيوقراطى أصوله السياسية كالحقوق الطبيعية ، وأصوله القانونية والاجتماعية كالارادة العامة ، وساروا بها شوطا بعيدا حتى جاء (دوركيم) زعيم المدرسة الاجتماعية الفرنسية الحديثة ، فعمل على تجريد البحث الاجتماعى من الجانب النفسى ، وضم البحث الاقتصادى إلى فروع علم الاجتماع البحت ، وا كتشاف القوانين الصارمة ، ورسم البرامج لذلك كله .

محمد محمود زيتون

خواطر جغرافية

للأستاذ محمد محمد علي

إن اعتماد الناس في ممارسة الحرف على ظروف كثيرة . ظاهرة ملحوظة ؛ ففي بعض الاقاليم نجد مجال اختيار الحرف محدوداً وفي أقاليم أخرى نجده كبيرا . وفي أغلب مناطق أمريكا الجنوبية حيث يسكن بقايا من الهنود لا يزالون صيادين ، ويضيعون وقتهم في تحقيق رغبات بدائية ، وهم لا يستغلون كل موارد الثروة في بلادهم . وواضح أن الفرق عظيم بين هذه الحياة البدائية البسيطة والحياة الحديثة في نيويورك مثلا . وتتميز هذه الحياة بوجود ترابط بين مختلف الحرف ، وهذا الترابط وثيق رغبة الانسان المتزايدة وقدرته على استغلال الموارد الطبيعية .

كان الناس في الأزمنة الغابرة يعيشون في أراضيهم ، ويتبادلون مع جيرانهم بما يزيد عن حاجاتهم ، أي كان اعتمادهم على الأرض التي يقطنونها . فيمكن القول بوجه عام لمن النشاط التجاري ليس بجديد . فالحضارات القديمة مثل الحضارة المصرية والبابلية في العالم القديم ، وحضارة الأزتك والمايا والانكا في العالم الجديد ، أقامت نظما في التبادل مختلفة . وبانتقال الحضارات من غرب آسيا إلى البحر المتوسط وشمال غرب أوربا حدثت تغييرات ملحوظة في النظم الاقتصادية . ولقد كان الفينيقيون والإغريق والقرطاجيون والرومان يتاجرون في العطور والأحجار الكريمة ومنتجات الغابات ، ووصلوا إلى الشواطىء الغربية والشمالية للبحر الأسود فضلا عن قيامهم بدور الوسيط بين تجارة الشرق والغرب . فلما كسدت التجارة القديمة في البحر المتوسط جاء الصليبيون في أوائل العصور الوسطى واشتغلوا بالتجارة ، ثم قامت جنوة والبندقية وأصبح لهما أهمية تجارية عظمى ، وكانت أساطيلهم تمخر عباب كل أجزاء البحر المتوسط . ومع أن سكان أوربا قد عرفوا كثيرا من المنتجات التي كانت مجهولة لديهم من قبل ، فان التجارة لم تكن نشيطة إذا قورنت بما حدث في عصر الاستكشاف ، والانقلاب الصناعي . وفي أوائل القرن الخامس عشر واجهت مجموعات المدن التجارية صعوبات متزايدة في الحصول على منتجات الشرق ، إذ أن استيلاء الترك على مصر والقلاقل السياسية سببت ركودا في التجارة . فولى تجار أوربا وجوههم شطر الاطلنطي لعله يؤدي إلى طريق مضمون لتجارة الشرق . وأول من فعل ذلك الاسبان والبرتغال ثم الانجليز والفرنسيون والهولنديون . وعلى الرغم من الحروب فقد فاضت خزائن الأوربيين بالذهب والفضة . ثم كانت بذور النهضة الصناعية فترك الصناع اليدويون منازلهم إلى المصانع ، وبعد أن كانت الريح والمجاري المائية مصدر الطاقة أصبح الفحم هو المصدر ثم الكهرباء . وقد أدى الانقلاب الصناعي إلى التخصص والتركز ، وأدت التغييرات التي صحبته إلى زيادة السكان في العالم من ٥٠٠ مليون نسمة سنة ١٧٠٠ إلى أكثر من بليونين في الوقت الحاضر . ولا شك أن أساس الزيادة هو التقدم والارتقاء من جراء التبادل والاحتكاك .

***

اكتشف الانسان الموارد الطبيعية واستطاع أن يستغلها ؛ ولم تتغير فقط نواحي نشاطه بل إن البيئة الطبيعية اعتراها التغيير ؛ فمثلا تستجيب الحياة النباتية والحيوانية لتذبذبات المناخ والاختلافات الجوية . ويمكن للانسان أن يتغلب على الصعوبات الطبيعية ، فهو يجفف البرك ويروي الصحاري ويخصب التربة الجديدة ، بل ويستنبت النباتات في البيوت الزجاجية ويشق القنوات ويفتح الممرات ويطير في الهواء ! . ولئن كان هذا يكشف عن قدرة الانسان على تغلبه على البيئة فان من الضروري أن يكيف نفسه مع ظروفها . فالمناطق المدارية والتندرا لا تزال كما هي بالرغم من كل ما أمكن الانسان أن يفعل . إذ يستحيل استنبات الموز في مناطق التندرا (الصحاري الجليدية) أو رعي الرنة في الغابة الاستوائية . وإذ يعتبر الاسكيمو نفسه سعيد الحظ إذا حصل على غذاء كاف ومأوى دفيء ، فان ساكن المناطق المدارية يكافح ليحمي نفسه من الوحوش الضارية والحشرات المؤذية والحرارة المرتفعة والرطوبة العظمى .

إن قدرة الانسان على الاستفادة من الموارد الطبيعية في تغير ؛ ففي الأيام الخالية كانت المجاري المائية مورد الغذاء لكنها كانت تعوق حركات السكان ، ثم أصبحت طرقا هامة فصادر للري

شعـــــر القرن التاسع عشر

بين التجديد والتقليد

للاستاذ أحمد أبو بكر ابراهيم

بقية ما نشر في العدد الماضي

[illegible] الشعراء في عصور الانحطاط ، بعد أن فترت همتهم عن التحليق في سماء التجديد وذابت شخصياتهم ، فلم يعد لهم قدرة على الخلق والابتكار ، بل وضعوا أنفسهم في مقام التابعين للضعفاء ، والمرء حيث يضع نفسه. وليس أدل على التقليد وفتور القريحة ، من اتخاذ شعر الأقدمين مجالا للتشطير والتخميس وما شابه ذلك

فاستمع إلى حسين بيهم المتوفى سنة ١٨٨١ يقول :

وإذا العناية لاحظتك عيونها	وحباكها من فضله الرحمن
ناداك طائر يمنها وسعودها	ثم فالمخاوف كلهن أمان
واصطد بها العنقاء فهي حبالة	وأملك بها الغبراء فهي سنان
وأصعد بها العلياء فهي معارج	واقتد بها الجوزاء فهي عنان

والشاعر في مثل هذا مقيد بمنهج غيره ، ملزم باحساس [illegible] ، لا يستطيع أن يتحرر في مثل هذا تصوير العاطفة والاحساس .

وقد يلجأ الشاعر إلى طريقة أخرى ؛ فهو يقلد من سبقه في معانيه ووزنه وقافيته ، ولا يزال يلح في التقليد حتى ينقل إليك من كلام السابقين ما حلاله ، ومن ذلك قول « فارس الشدياق » فيما سماه « دمعة على طفل »

والطاقة وهناك مثل حي للدور الذي تلعبه البيئة في الاقتصاد ؛ فمنذ أقل من قرن كانت اليابان أمة أبناؤها ٣٠ مليون نسمة . كان معظمهم يكفي نفسه بنفسه . واليوم يقطن اليابان الأصلية أكثر من ٧٥ مليون نسمة بالاضافة إلى ثمانية وعشرين في امبراطوريتها الاستعمارية . باستثناء منشوريا وما أخذ من الصين (وهذا طبعا كان قبل الحرب العظمى الثانية) ومع أن البيئة المحلية هي كما كانت منذ قرن فانها مع تطور التجارة تلعب دورا خطيراً ، لأن اليابانيين ربطوا اقتصادهم بالبيئة العالمية . وقد استغلوا أنهارهم القصيرة في توليد الكهرباء للصناعات ، وهذا مع رخص الأجور وضع أساس النهضة الصناعية . فكان المستورد من الصوف والقطن والمعادن يصنع ويصدر ثانية . كل ذلك جعل من اليابان القوة الوحيدة في الشرق الأقصى .

***

والجغرافيا الاقتصادية من أهم فروع الجغرافيا ، فهي تدرس الحرف المختلفة وتحاول أن تشرح سبب تفوق مناطق خاصة في انتاج وتصدر مختلف السلع ، في حين تتفوق أقاليم أخرى في الاستهلاك والاستيراد . ومن البديهي أن هناك أسبابا طبيعية لنشاط الانسان في حصوله على حاجياته الرئيسية : الغذاء والكساء والمأوى والوقود . فلن يبحث الصائد عن الدب القطبي في مناطق السفانا المدارية ، أو السباع في أقاليم التندرا . ولا تنمو الحبوب في الصحراء المجدبة ، إنما يبحث الانسان عن المياه الضحلة قرب الارصفة القارية من أجل السمك ، وعن حقول الفحم وآبار الزيت وعن الغابات الدفيئة وعن السهول الخصبة المستوية للزراعة . وإذا عرفنا أثر العوامل الطبيعية فلا يمكن أن نتجاهل العوامل البشرية ، فالمؤثرات الجنسية والتقاليد الموروثة تؤثر في مختلف نواحي نشاط الانسان ، فالمواهب الفنية للفرنسي ، وصبر العامل الصيني ، وعادات الفراغ في أمريكا اللاتينية ... هي تؤثر في الزراعة والصناعة والتجارة ، ولا يمكن أن تكون أقل أهمية من العوامل الطبيعية .

إذن يمكن القول بوجه عام إن الصلة بين عوامل البيئة الطبيعية والأحوال الاقتصادية من جهة ، وبين الحرف المنتجة وتوزيع إنتاجها من جهة أخرى ، هذه الصلة هي موضوع دراسة الجغرافيا الاقتصادية . ثم إن الناس اليوم في كل مكان لا يتأثرون ببيئاتهم المحلية فحسب بل يتأثرون أيضا بالبيئات الأخرى وبالأحوال الاقتصادية في شتى بقاع العالم .

محمد محمد علي

الدمع بعدك ما ذكرتك جارى والذكر ما وراك ترب وار
يا راحلا عن مهجة غادرتها تصلى من الحسرات كل أوار
خطأ وهمت فأين بعدك مهجتى ما فى حشاى سوى لهيب النار
رمقا أقل الجسم منى قادحا فكأنه وقر من الأوقار
ما بعد فقدك رائمى أو رائق شىء من الظلمات والأنوار
أبنى ما يجدى التصبر أقولهم : حكم المنية فى البرية جار
كلا ولا بى قر بعدك من حجى ما هذه الدنيا بدار قرار

وهكذا يمضى الشاعر مقلدا مرة وناقلا مرة أخرى إلى آخر القصيدة . ومن التأثر بشعر الأقدمين قول السيد على الدرويش يذم بلدة منفلوط وكان قد زارها فلم يلاق فيها ترحيبا ولا برا :

وردنا منفلوط فلا سقاها وردناها فأظمأنا الورود
فمالى قد بعثت لقوم عاد كأنى صالح وهم ثمود
أراهم ينظرون إلى شزرا كعيسى حين تنظره اليهود

ومن الألوان التى أسرفوا فيها ، وبعدوا فيها عن منهاج الشعر الصحيح ما سموه « بالتاريخ الشعرى » ومن أمثلة هذا قول أحدهم يؤرخ تولى الخليفة للخلافة :

تولى التخت سلطان البرايا وأيده الاله برتقاه
فصاح الكون لما أرخوه نظام الملك « محمود » بهاه

فتأمل كيف يضيع الشاعر وقته ، وينفق مجهوده فى وضع حرف مكان حرف ، وكلمة مكان أخرى حتى يخرج مجموع الحروف فى قوله : « نظام الملك محمود بهاه » « ١٢٢٣ » وأية ناحية من نواحى الجمال فى مثل هذين البيتين .

وراح الشعراء لنضوب الأذهان من المعانى الجليلة يطرزون اللفظ والمعنى بشتى ألوان المحسنات ، فكان بعضهم يوفق فى اصطياد المحسنات فتأتى سهلة لا يشق وقعها على السمع ، ولا تنبو عن الذوق . من مثل الاقتباس فى قول البرير حينما هجا تاجرا سمها عن الآخرة :

يا تاجرا لا يزال يرجو ربحا ويخشى الخسارة
عبادة الله كل حين خير من اللهو والتجارة

وكان يخطئهم التوفيق أحيانا فيسمجون. فتأمل قول الشيخ مصطفى بن أحمد المعروف بالصاوى فى وصف دار للجبرتى :

سما فى سماء الكون فانتهج العلا برفعته وازداد سرا سروره
ومن مجده بانيه تزايد بهجة وقلد من دار المعالى نحوره
ودام به سعد المعالى مؤرخا حمى العز بالولى الجبرتى نوره

وقول على الدرويش فى وصف قصر أيضا :

وقصر كالسماء به نجوم مطالعه السعادة والبدور
على أقطاره تبكى عيون إذا ابتسمت لوارده زهور
فليس بوافد وافاه نهر وقد نضدت لمدحته البحور
لعن أضحى لمبناه متون فقد شرحت لرونقه الصدور

ولقد كان هؤلاء الشعراء أنفسهم ومن فى طبقتهم إذا تجاوزوا هذه الموضوعات إلى موضوعات أخرى فيها حديث النفس وتصوير العواطف ؛ أصابوا بعض التوفيق فتأمل قول السيد عمر اليافى وكان من المتصوفين :

أنا بالله اعتصامى لا أرى فى ذاك شكا
موقنا أن لا سواه كاشف ضرا وضنكا
راجيا فيه نوالا ورشادا ليس يحكى
لم أزل لله عبدا وبهذا أتزكى

ولعلك واجد فى هذه الأبيات طبعا وانسجاما وسهولة لا تحسها فى الأشعار السابقة .

ولا بأس من أن نعرض هنا صورا من استجابة هؤلاء الشعراء إلى عواطفهم ؛ فى موضوعات الفكاهة والدعابة ووصف الطبيعة وشكوى الزمان ، ففيها على أى حال طلاقة وإحساس ، وقوة ملامح الشاعر التى تميزه عن غيره من الشعراء . ونحن لا ننكر أننا سنجد فى هذا كله سذاجة فى بعض المعانى ، وسنقع على بعض الضعف فى الأسلوب ، ولكننا مع هذا سنستجيب لاحساس الشاعر وسنقبل عليه متأثرين بكثير مما قال — وتتضح لنا شخصيته التى كانت تختفى فى الأغراض السابقة وراء حجب كثيفة من التقليد . ستتضح لنا بين الحين والحين ويختفى ضعفه وفتوره ، كما تختفى علة المريض أحيانا فى ومضات من عودة الصحة وسلامة العافية . قال الشيخ صالح التميمى ينعى على أرض أقام فيها فلم يطب له فيها المقام :

ما إن تحركت الغصون بأرضها إلا تحرك فى الجسوم أذاها
أشجارها خضر وأوجه أهلها صفر مما كيف المقام بهاها

لولا قضاء الله حتم واجب أبت المروءة أن أدوس ثراها

وقال أحدهم يشكو الدهر :

رمت قلبي نبال الدهر حتى رأيت دمي يسيل من العيون
فلو كان الزمان يصاغ جسما لكنت أدقه كأس المنون

وقال الشيخ يحيى الروزى الهادى العراقى :

على ثيـاب لو يباع جميعها بفلس لكان الفلس منهن أكثرا
وفيهن نفس لو تباع بمثلها نفوس الورى كانت أعز وأكبرا

ومن ذلك قول الحاج عمر الأنسى البيروتى المولود سنة ١٨٢٢ فى وصف ثقيل اشتكى من كثرة الذنوب :

شكا ثقل الذنوب لنا ثقيل فقلت له استمع لبديع قيلى
ثلاث بالتناسب فيك خصت فلم توجد بغيرك من مثيل
ذنوبك مثل روحك ضمن جسم ثقيل فى ثقيل فى ثقيل

ولعلك تدرك شيئا من ضعف الأسلوب فى هذه الأبيات .

وفى الأبيات التى سنعرضها عليك فيما يلى ، خفة روح ، وتصوير فكه وهى لنيقولا الترك يتحدث عن سرواله وعمامته .

وسروال شكا عتقا وأمسى يراودنى العتاق فما عتقت
وكم قد قال لى : بالله قلنى وهبنى كنت عبدا وانطلقت
أما تدرى بأنى صرت هرما وزاد على أنى قد فتقت
تدعنى حيث قل النفع منى وعاد من المحال ولو رتقت
ولا تعبأ بتقلبى لأنى بعمر أبيك نوح قد لحقت
ولم يبرح يجدد كل يوم على النعى حتى قد قلقت
وقلت له : عتقت اليوم منى لأنى فى سواك قد اعتلقت
فأشعرت العمامة فى مقالى له فاستحسنت ما قد نطقت
فراحت وهى تشدو فوق رأسى لى البشرى إذا وأنا عتقت

نعم فى هذه الأبيات مرح وإحساس ، ولكن فيها بجانب ذلك عسرا فى القافية ، واضطرابا فى الأسلوب ؛ لأن الصياغة لم تستو بعد للشاعر ، ولم يمرن على الأسلوب السهل الرصين. ومن أمثلة وصف الطبيعة الجميل فى هذا العهد — وإن تعمد فيه الشاعر المحسنات — قول أمين بن خالد الجندى :

يا حبذا الربوة من دمشق بالفضل حازت قصبات السبق
كم أطلعت بهـا يد الربيع من كل معنى زائد بديع
وفتح الورد الكفوف إذ دعا داعى الصباح للها ورجعا
وفككت أنامل النسيم أزرار زهر الرند والشميم
وسقطت خواتم الأزهار من فنن الأغصان كالدراوى
والتف سيف البرق فى أوراق مذ شام خيل الريح فى سباق
ما بكت السماء بالغمام إلا وصار الزهر فى ابتسام

ونحن إذا ما تتبعنا الشعر خلال هذا القرن ، وبخاصة بعد أن انقضى عهد منه ؛ لحظنا فيه بذورا من بوادر النهضة توشك أن تظهر فى وضوح وجلاء مع توالى الأيام . فما الذى أحدث هذا يا ترى ؟ ! وما البواعث التى جعلت الشعراء يعزفون عن التقليد شيئا فشيئا ، ويقبلون على ألوان جديدة من الشعر ، توشك أن تحمل مميزات الشعر وصفات التجديد ؟

نحن لا نشك فى أن العلم الذى قطرته البعثات ، ومهدته الترجمة قد وجد طريقه إلى الشعر ففرزت معانيه ، ودقت ورقت أخيلته ، وسمت وتعددت آفاقه ، فخاض فى ألوان جديدة ، وطرق معانى لم يكن يطرقها من قبل . وعندئذ التفت الشعراء إلى ثقافة الماضى فوجدوها آلية ، قد تقيم اللسان ، ولكنها لا تقدر على البيان ، وقد تدرب على الصرف والعروض ، ولكنها لا تجلو لمبنى الشاعر أسرار الحياة ، ولا تمده بالخيال الخصيب والمعانى البديعة ، ولهذا عابوا على النحو والنحويين ، وانتقدوا العروض والعروضيين . فاستمع إلى الشيخ الأسير يعيب على شعراء اللفظ :

خليلى كم قد جد فى الناس شاعر وليس له بيت من الشعر عامر

واستمع إلى إلياس صالح وهو يتهكم على المبالغة فى النحو :

ماذا الذى يهمنى إن قام زيد أو قعد ؟
أو إن ذهبت ماشيا أو راكبا نحو البلد ؟
أو كان زيد مبتدا أو فاعلا سد المسد ؟
أو إن يكن ذا الاسم بى أو يكن هذا يهد !
تصالح الفعلان أو تنازعا طول الأبد
فى النحو لا تقهرنى إلا تفاصيل العدد
وأفعل التفضيل كم قد شذ فيه وشرد
وغير هذى عقد تبا لها تيك العقد
ترى بها قواعدا بدون معنى وزبد

مختومة جميعها يقس عليه ما ورد

وهذا ولا شك إعلان للحرب على القديم، حيث كان الناس يعدون من لا يبالغ فى دراسة النحو والصرف والعروض لا يحق له أن يغامر فى ميدان الشعر . وقد آمن كثير من الأدباء ومنهم الأستاذ العقاد (١) والدكتور هيكل باشا بأن أول من جمع بين الطريقتين ولفق بين الاتجاهين الساعاتى الشاعر ؛ فقد كان وسطا بين الناسجين على طريقة القدامى ، والناقدين لمذاهبهم فى المبالغة لدراسة النحو والعروض فهو القائل :

قدعنى من قول النحاة فإنهم تعدوا لصرف النطق من غير لازم
إذا أنا أحكمت المعانى خفضتهم وأرفعها قهراً بقوة جازم
وما أنا إلا شاعر ذو طبيعة ولست بسراق كبعض الأعاجم

ومن بواعث التجديد فى النصف الثانى من هذا القرن ، أن الناس قد استروحوا شيئا من نسيم الحرية الشخصية ، بعد أن كمت الأفواه وغلت الأقلام قرونا طوالا ، فوجد الشعراء فى خلال هذه الحرية منفذا إلى تصوير العواطف والانطلاق على السجية ؛ فعبروا عن النفس فى انقباضها وبسطها ، وهتفوا بالمعانى الكريمة التى تصور المآرب والآمال . وأنا أعنى بهذه الحرية ما عناه الشاعر وترجمه المنفلوطى حيث قال : « أريد أن أعيش حراً طليقا أضحك كما أشاء، وأبكى كما أريد، واحتفظ بنظرى سليما ، وصوتى رنانا ، وخطواتى منتظمة ، ورأسى مرفوعا ، وقولى صريحا ، أنظم الشعر فى الساعة التى أختارها ، وفى الشأن الذى أريده ، فان أعجبنى ما ورد منه فذاك ، وإلا تركته غير آسف عليه ، وأخذت فى نظم غيره ، بدلا من أن أتوسل إلى الطابعين أن ينشروه ، والأدباء أن يقرظوه ، والممثلين أن يمثلوه ، والعظماء أن ينوهوا به ، ويرفعوا من شأنه .

أريد أن أعيش حراً طليقا أناضل من أشاء ، وأجادل من أشاء ، وأنتقد من أشاء ، وأن أقول كلمتى الخير والشر للأخيار والأشرار فى وجوههم، لا متملقا أولئك ، ولا خاشيا هؤلاء .. »

وقد يكون مصدر هذه الحرية الشخصية التى أدركها الناس فيما يقولون وما يتركون؟ راجعا إلى الحرية السياسية التى أصاب الناس بعضا منها على يد الحكام ، بعد أن انتقصها السابقون وجار عليها السادة الغابرون ، فقد عرف إسماعيل باشا أنه مسئول عن رق الأمة المصرية ، فعمل على إحياء ما يبعث الأمل فى قلوبهم ويقوى الرغبة فى نفوسهم ، فمنحهم بعض الحقوق الدستورية ، وقد حدث ما يشبه هذا فى الشام والعراق ، على يد مدحت حينما طالب الناس بالدستور ، ولكن ذلك كله لم يطل أمره ، فقد تغيرت الأحوال وتبدلت الشئون .

وقد يكون مصدر هذه الحرية العلم الذى انتشر وذاع وتعلاه الناس : فالعالم أحرص الناس على كرامة نفسه ، والاعتزاز بمكانتها ، ولهذا أنف الشعراء بعد هذا أن تسد فى وجوههم طرق الصراحة والتماس الحق ، والتغنى بالجمال حيث كان .

وقد ساعد على نمو هذه الحرية ، رخاء العيش فى ذلك الزمان كما أدركوا إعجابا وتشجيعا من الجمهور ، فطبعوا ما أنتجته قرائحهم ، ووجدوا من يقدر هذا الانتاج ، ويقبل عليه ، فحصلوا على المال دون إراقة لماء الوجوه .

ومن أسباب رقى الشعر فى هذا العهد ، أن الناس قد شعروا بشىء من الكرامة والعزة ، فانتبهوا إلى ماضيهم المجيد يقلبون صفحاته ، وينقبون عن صفاته ، فوجدوا الفخر كل الفخر فى مجد آبائهم العرب ، فالتمسوه فى أخبارهم وأشعارهم وكتبهم ؛ وساعدهم على هذا الاتجاه المطبعة التى صارت تقذف اليهم كل يوم بذخائر السابقين وكنوزهم - فعلموا بعد هذا — أنهم أضاعوا المجد وعبثوا بالتراث ، وأنه من الخير لهم أن يقووا أنفسهم عن طريق التعصب للقومية العربية ؛ فهى خير القوميات وأكرمها ، فكان هذا التعصب من أسباب قوة الشعر ونهضته وما هتف هاتف قبل الشيخ ابراهيم اليازجى بمثل قوله :

وما العرب الكرام سوى نصال لها فى أجفن العليا مقام
لعمرك نحن مصدر كل فضل وعن آثارنا أخذ الأنام
ونحن أولو المآثر من قديم وإن جحدت مآثرنا اللئام
فقد علم العراق لنا قديما أيادى ليس تنكرها الشآم
وفى أرض الحجاز لنا فيوض يسيل لها إلى اليمن انسجام
وفوق الأندلوس لنا بنود لهامات النجوم بها اعتصام

(١) شعراء مصر للعقاد، ومقدمة ديوان البارودى لهيكل

وسل فى الغرب عن آثار فخر لهـا فى جبهة الزمن ارتسام
ولسنا القانعين بذكر هذا وليس لنـا بمرونه اعتصام
ولكنا سنجرى فى المعـــالى إلى أن يستقيم لها قوام

والالتفات إلى مجد العرب لفتهم إلى مجد قوى آخر يتصل بالماضى القديم ، وكان هـذا أكثر ظهورا فى مصر ؛ لما لها من مجد عريق ، فها هوذا السيد الدرويش يحاول أن يتحدث عن الهرمين وخلودهما ولكن الأسلوب لا يسعفه فيقول :

أنظر إلى الهرمين واعلم أننى فيما أراه مهما مبهوت
رسخا على صدر الزمان وقبله لم يبهضا حتى الزمان يموت

وها هوذا الشيخ نجيب الحداد يتحدث عن مجد مصر فيقول :

أرض إذا لم يعل فى أرجائها علم فان كرامها لمعـلام
لبست من المجد التليد مطارفا ولها من المجد الطريف وسام
وتعانقت والفخر من قدم كما قد عانقت ألف الكتابة لام
مجد به هرم الزمان ولم يزل غضا وقد شهدت به الأهرام

ومن حقك الآن أن تسأل : إذا صح أن الالتفات إلى القومية والاعتزاز بالكرامة ، قد جعلا الشاعر يخوض فى أغراض غير التى ألفها الشعراء من قبل ، ويتناول من المعانى ما غاب عن السابقين ، وند عن الغابرين ، فكيف نفسر قوة الأسلوب الطارئة ، والعزوف عن المحسنات البديعية التى فتنت الناس عهودا طوالا ؟! وأنا أجيب بأن الاتجاه إلى الأمور الجدية يصرف المرء دائما عن الصغائر ، ويبعده عن العبث الذى لا طائل تحته ، فما قيمة مراعاة الجناس والطباق والتورية فيما يتطلبه صاحب الهمة من الاصلاح ، وما قيمة مراعاة النظير وحسن التعليل لراغب فى تصوير عواطفه والانبعاث على سجيته . لقد كبرت آمال الشعراء ونفوسهم فترفعوا عن كل صغير تافه ، والتمسوا تحقيق المآرب من أقرب المسالك فأزالوا ما يعترضهم من عقبات ، وأليسوا معانيهم الأسلوب السهل الجميل ، وهو لا يحملهم عناء ، ولا يصرف وقتهم فى التماس الزينة ، واصطياد الزخارف . على أنهم وجدوا طلبتهم فيما بعث به المطبعة من أشعار الفطاحل فى عصور العربية الزاهرة : فقد وجدوا جريراً والفرزدق والأخطل والكميت وقطرى بن الفجاءة وأضرابهم إذا ما عالجوا الشعر ، دفعوا إلى المعانى فى أسلوب قوى رصين لا يشوه من جماله ، ولا يحد من بلاغته تلك الزخارف الكثيرة التى مسخت طبيعته بعدهم نحو ألف من الزمان ، وحالت دون تحليقه فى كل سماء ، واندفاعه إلى كل غاية

وبعد فانه لا يختلف اثنان فى أن البارودى بما انتج من شعر رصين كان بداية عهد جديد للشعر حط عنه قيوده وأغلاله ، وبعث فيه الحياة فجال فى كل فن ، واستبق إلى كل غاية ، فلم يقصر دون اللحاق بالفحول السابقين ، ولم يدركه ما أدرك شعراء زمانه من فتور القريحة وركود الذهن .

بل لا نجانف الانصاف ، فى أنه أول شاعر أحس قيمة الشعر وقيمة النفس ؛ فترفع بهما عن سفساف المطالب ، وزرى المقال وتغنى كما يتغنى صادح الأيك على سجيته : فبكى وابتهج واشتكى وافتخر وعاتب وحن إلى الديار ، وصور الجمال ولم يمدح إلا عن يقين ، أو لرد جميل سلفت أياديه عليه ؛ فكان بهذا نسيج وحده فى القرن التاسع عشر . وإن لم يطاب بشعره كل ما تريده من الشعر فى وقتنا الحاضر ، ويكفيه أنه رائد الركب إلى الغايات الكريمة ، ولا نذكر هنا من شعره المثل أو المثالين ؛ إلا لنعرض فى هـذا المقام لونا جديدا من شعر جديد ، لم يشنف الأذن فى الكلمة شبهه ، ولم يطرق القلب نظيره ، والحق أن كل شعره فاتن خلاب ، يحمل المتخير على الحيرة فيما يأخذ وما يدع

ومن الأمثلة التى تدل على تيقظه السياسى قوله يخاطب الخديو :

سن المشورة وهى أكرم خطة يجرى عليها كل راع مرشد
فمن استبان بها تأيد ملكه ومن استهان بأمرها لم يرشد
أمران ما اجتمعا لقائد أمة إلا جنى بهما ثمار السؤدد
جمع يكون الأمر فيما بينهم شورى وجند للعدو بمرصد
فالسيف لا يمضى بدون رؤية والرأى لا يمضى بغير مهند

ومن قوله من قصيدة يتشوق إلى وطنه :

هل من طبيب لداء الحب أوراق يشفى غليلا أخا حزن وإراق ؟!
قد كان أبقى الهوى من مهجتى رمقا حتى جرى البين فاستولى على الباقى
حزن يرانى وأشواق رعت كبدى يا ويح نفسى من حزن وأشواق
أكلف النفس صبرا وهى جازعة والصبر فى الحب أعيا كل مشتاق
لا فى سمر نديب لى خل ألوذ به ولا أنيس سوى همى وإطراقى
أبيت أرعى نجوم الليل مرتفقا فى قنة عز مرقاها على الراقى

بهذا الروح القوى ، والأسلوب الجزل الرصين ، يمضى شاعر القرن التاسع عشر فى قصائده ؛ فلا تحس قلقا ولا ترى

أستاذ جامعي

بتنبي تحريف وراق

الاستاذ عبد المتعال الصعيدي

كان الشيخ فرج الله زكي الكردي طالب علم بالأزهر ، وقد بدا له أن يجمع إلى هذا الاشتغال بطبع الكتب الازهرية ونشرها فابتدع في ذلك بدعة جديدة : أن يجمع في نسخة واحدة عددا من الشروح والحواشي الموضوعة على المتن الأزهري ، ليسهل على الأزهريين الإلمام بجميع المباحث اللفظية في تلك الشروح والحواشي ، ويزيدوا في هذا على من سبقهم في عصر الطباعة وانتشار الكتب ، وسهولة اقتنائها على طلاب العلم

وقد بدا له في سنة ١٣١٧ هـ — ١٨٩٩ م أن يفعل هذا في متن التلخيص ، فجمع في نسخة واحدة عددا من شروحه وحواشيه ، وهو الذي يعرف في البيئة الازهرية بشروح التلخيص فوضع في صلبها شرح المختصر على متن التلخيص للسعد التفتازاني ، ومواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب ، وعروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي ، وهي على هذا الترتيب في الصلب ، ثم وضع بالهامش الايضاح لتلخيص المفتاح ، وهو لصاحب متن التلخيص ، وقد جعله في أعلى الهامش ووضع حاشية الدسوقي على شرح السعد التفتازاني في أسفله ، وقد ميز بين هذه الشروح والحواشي بفواصل أفقية ، وعني رحمه تعالى بتصحيح هذه المجموعة ، وبوضع هذه الفواصل في كل صفحة منها ، في الطبعة الاولى ، واختار لها المطبعة الاميرية ببولاق زيادة في الاعتناء

فلما نفدت هذه الطبعة من هذه المجموعة أعيد طبعها بعد هذا في مطبعة السعادة الموجودة بجوار محافظة القاهرة ، ولكن الطبعة الجديدة لم تكن جيدة التصحيح كالطبعة الاولى ، فوقع بعض تحريفات فيها ونسي وضع الفواصل الأفقية بين شروحها وحواشيها في بعض صفحاتها ، وكان هذا سببا في التحريف الذي وقع في كتاب الايضاح ، وفيما لمن هذه القصة الظريفة التي يتبنى فيها استاذ جامعي ذلك التحريف ، فقد قررت دار العلوم وكلية الآداب وكلية اللغة العربية دراسة كتاب الايضاح في علم البلاغة ، فرأى حضرة محمد صبيح أفندي أن يقوم بطبعه منفصلا عن تلك المجموعة ، لأن تلك المعاهد تريد دراسته وحده ، وتريد أن تبعد طلابها عن شروح التلخيص وحواشيه ، ليتخلصوا في دراستهم العالية للبلاغة عن مماحكاتها اللفظية ، ويتربى فيهم شيء من الذوق والنقد البلاغي يعلو على هذه المماحكات ، وهذا الوراق الفاضل من أشهر المشتغلين بنشر الكتب في مصر لكنه يتساهل أحيانا فيختار لتصحيح ما ينشره من غير ذوي الدراية في التصحيح . فلما قام بطبع كتاب الايضاح اعتمد مصححه على النسخة الموجودة بأعلى هامش تلك المجموعة في طبعة مطبعة السعادة ، فلم يرجع في ذلك إلى نسخة خطية من الايضاح ، ولم يرجع إلى الطبعة الأولى لتلك المجموعة ، فلما وصل إلى آخر الكلام على وصف المسند اليه من الايضاح لم يجد فاصلا أفقيا بين الايضاح وحاشية الدسوقي ، وكان ما تحت الايضاح من هذه الحاشية في تلك الصفحة تتمة لتعليقة في الصفحة السابقة على شرح السعد فأضافها ذلك المصحح إلى كتاب الايضاح ، مع أن سياقه ينبو عنها ومع أنها لا تتصل بكلام في شرح السعد ، فلا تكون إلا من الحاشية الموضوعة عليه ، وقد تمت هذه الطبعة من الايضاح سنة ١٣٤٢ هـ — ١٩٢٣ م ، وتناولها الطلاب والمدرسون فأثار هذا التحريف من المشاكل بينهم ما أثار ، حتى إني رأيت واحدا منهم يرجع إلى نسخة خطية من الايضاح في دار الكتب الملكية فلا يجد فيها هذه الزيادة الموجودة في الايضاح المطبوع ، فيضع

ضعفا ، ومن الحديث المعاد أن نطيل في إطرائه والثناء على مكانته ، ولكنا لا ننسى على أي حال أنه كان كثير التقليد لفحول النابغين . وآمل أن أوفق — أو يوفق غيري — إلى إيضاح التقليد والتجديد والتجديد في الشعر الحديث من لدن البارودي إلى وقتنا الحاضر ، لندرك ما أصابه من القوة ، وما بعد به عن الغاية المرجوة . والله وحده المسئول أن يأخذ بيد الشعر إلى أقوم طريق .

(واد مدني) أحمد أبو بكر ابراهيم
المدرس الأول بمنتوب

عليها تعليقا بخطه مرجحا فيه أن الزيادة التي في طبعة محمد صبيح أفندي من حاشية الدسوقي .

ولما كانت ١٣٥٣ هـ — ١٩٣٥ م قمت بوضع شرح على الايضاح ، وكان بين يدي من نسخه طبعة الكردي الأولى في أعلى هامش مجموعته ، وطبعة صبيح أفندي ، فلما وصلت إلى التحريف علمت أمره ، وحذفته من الايضاح في شرحي عليه ، وتوالى طبعه ثلاث مرات وأنا أحذف منه هذه الزيادة في ذلك الموضع ، وقد أعاد صبيح أفندي طبع الايضاح بعد أن نفدت طبعته الأولى ، فاعتمد على نسختي ، وحذف منه تلك الزيادة في موضعها ، إلى تحريفات كثيرة كانت في طبعته الأولى .

وأخيرا قام بعض مدرسي كلية اللغة العربية في هذا العام بوضع شرح على الايضاح ، فلما وصل إلى ذلك الموضع منه وقع أيضا في ذلك التحريف ، وهنا موضع الطرافة في هذه القصة ، لأن صاحب هـــذا التحريف وهو صبيح أفندي رجل وراق ، وليس مدرسا في كلية ، فلم يرشحه في أن يقع في ذلك الخطأ ، ولا في أن يرجع عنه بسهولة ، فيصححه في طبعته الجديدة ، أما تلميذه في ذلك التحريف فأستاذ مدرس في كلية ، لا في معهد ابتدائي أو ثانوي ، فلا يصح أن يسجل على نفسه مثل ذلك الخطأ ، ولا يصح أن يرجع عنه بالسهولة التي رجع بها ذلك الوراق ، بل يجب أن يتبناه لنفسه ، وأن يدافع عنه بما يليق بأستاذ جامعي .

والحقيقة أني استكثرت في أول الأمر مثل هذا على ذلك الأستاذ ، واعتراني الشك في خلو نسختي من هذه الزيادة التي تبلغ نحو سبعة أسطر ، وكنت قد نسيت بطول الزمن وقوع ذلك في طبعة صبيح أفندي القـــديمة ، فأعدت بحث ذلك من الناحية العلمية ، فوجدت سياق حاشية الدسوقي يحتم أنها منها . ولم اكتف بهذا بل أخذت أبحث في نسخة أخرى من شروح التلخيص غير نسختي ، فوجدت تلك النسخة التي لم تضع فاصلا في ذلك الموضع بين الايضاح وحاشية الدسوقي بمكتبة كلية اللغة العربية . ووجدت بعض من طالعها قام بوضع ذلك الفاصل في موضعه ، فعلمت من أين وقع ذلك الاستاذ في ذلك التحريف ، ونبهت على ذلك في كتابي — دراسة كتاب في البلاغة — ولكن فاتني أن أرجع أيضا إلى طبعة صبيح أفندي القديمة ، لتنتقل القصة من هذه الطرافة إلى طرافة أعجب منها ، ويعلم من بقي من زمننا القديم كيف يكون الاصرار على الخطأ في هذا الزمن الجـــديد .

فكان نسياني وقوع ذلك التحريف في طبعة صبيح القديمة فرصة سانحة لذلك الاستاذ ، ولا يصح أن يترك انتهازها وهو مدرس في كلية ، فطلب مني أن أطلع على تلك الزيادة فيها في ذلك الموضع ، وإن كان قد جعله في باب التعريف باللام لا في باب الوصف ، ولكنه يعرف أن طبعة صبيح ليست حجة في ذلك ولا سيما بعد رجوعه عنه في طبعته الجديدة ، فلا بد أن يضيف إلى ذلك نسخة خطية للايضاح في دار الكتب الملكية ، من غير أن يعين رقمها ، وهو ممن يعنى بتعيين أرقام المراجع ، لأنه يعرف غفلة الناس في هذا الزمن ، وسرعة تصديقهم لكل دعوى حتى صار العلم بيننا غريبا ذليلا لا يجد من يغار عليه ، أو يهمه تحقيق مثل هذا فيه ، ولكن كان على الاستاذ أن يعرف مع هذا أنه لا يزال في الناس من لم يصل في الغفلة إلى ذلك الحد . ومن يبعث الشك في نفسه عدم تعيين رقم تلك النسخة الخطية للايضاح في دار الكتب الملكية ، إذا لم يأخذ منه بيقين أنه لا يوجد فيها تلك النسخة .

وقد رجعت فعلا إلى نسخ الايضاح الخطية بدار الكتب الملكية ، فلم أجد فيها ذلك التحريف الذي أدعى وجوده فيها ذلك الاستاذ ، ولا يمكن أن توجد نسخة خطية للايضاح فيها ذلك التحريف ، لأن مصدره معروف وهو طبعة صبيح القديمة ، وسبب وقوعه فيها معروف وهو عدم وجود ذلك الفاصل بين الايضاح وحاشية الدسوقي في نسخة مطبعة السعادة من شروح التلخيص .

ولينظر بعد هذا صديقي الاستاذ عباس خضر في كتابي — دراسة كتاب في البلاغة — فسيجد بين ما فيه من مماحكات لفظية كنت مضطرا اليها كثيرا من مثل تلك القصة الطريفة وسيجد فيه مجالا لدعاباته العلمية البريئة ، كما يجـــد أن معركة القزويني لا تخلو من فوائد ، أقلها حمل بعض الناس على التدقيق في التأليف وتصحيح الكتب وإن كان لها مضار بين الطلاب من جهة ما وقع فيها من الاسفاف ، ولو كنت متصلا بالرسالة في

معركة القزويني في الأزهر

للاستاذ محمد عبد المنعم خفاجي

نشر الأستاذ الكاتب الوهوب عباس خضر رأيه في هذه المعركة ؛ وقد تفضل أستاذنا الجليل فضيلة الشيخ عبد المتعال الصعيدي ، فنشر في الرسالة تعقيبا على كلمته . ويبدو أن أستاذنا الجليل يريد أن ينقل المعركة إلى ميدان الرسالة الغراء ، إذ بدأ فنشر رأيهم. وإني إنصافاً للحقيقة أضع أمام القراء الحقائق الآتية:

١ — ليس شرح الأستاذ الصعيدي الايضاح مقرراً في الكلية ، ولا شرحي أيضا .

٢ — للكثير من كبار الأساتذة في كلية اللغة كتب متعددة في علم واحد ومقررة واحدة ، فلم يؤد ذلك إلى أن يهاجم السابق اللاحق ولا العكس ؛ بل إني أثنيت في شرحي على الأستاذ الصعيدي ومجهوده في شرح الايضاح .

٣ — وأساتذتنا في الكلية يحرصون على إباحة حرية البحث والتأليف لطلبتهم ، فكيف يحجر أستاذ على زميله أن يؤلف في البلاغة لأن له كتابا فيها ؟

٤ — وعندما ظهر الجزء الأول من شرحي بدأني الأستاذ الجليل بالخصومة ، وطاف على الطلبة في الفصول ينبههم إلى أن كتابه هو المعتمد للدراســـة وكتابي مملوء بالأخطاء ثم نشر بيانا للطلبة سماه « تنوير لطلبة كليـة اللغة » يندد فيه بأخطاء مزعومة في الجزء الأول من شرحي .

٥ — وقال له كثير من الأساتذة : إنه يهتم في نقده مهما كان ، لأن هذا النقد لا يحمل على شيء أكثر من أنه دفاع عن كتاب .

٦ — ورأى أنه لا يصح أن يلحق بغباره أحد ، لأن له عشرين مؤلفا . والطريف أن أحد الأساتذة الأجلاء ذكر له أن هذا ليس موضعا للفخر ، لأن الذي ينقده — خفاجي — أكثر من عشرين كتابا بعضها مراجع ومصادر ، مع أنه أستاذ ناشيء .

٧ — وليت شعري بعد ذلك كله كيف انقلبت هذه المعركة العلمية إلى خصومة شخصية عند أستاذنا الجليل الشيخ الصعيدي ، فامتنع عن مصافحتي كلما مددت له يدا ، بل امتنع عن رد السلام كلما ألقيت عليه السلام؛ ونشرت مجلتا الرسالة عنه أنه: « مهاجم أدبية » فنشر ردا عليه باسم مستعار لطالب زعم أنه من كلية الآداب ؛ ونشر أخيرا كتابا مطولا سماه « دراسة لكتاب في البلاغة » ، ظن أنه بهذا الكتاب يهدم زميلا له ، فكان حجة عليه لا له .

٨ — وإني أعيذ القارىء من أن أطيل عليه ، وأكتفي بعض ملاحظات صغيرة أنشرها توضيحا لمذهب أستاذنا الجليل في إصلاح البلاغة :

١ — ذكر أستاذنا الجليل الجاحظ في شرحه ، فعرفه بأنه عمرو بن بحر الأصفهاني !! ونسب فيه بيت حافظ المشهور : « الأم مدرسة إذا أعددتها » لشوقي ؛ ورأى أن جميع الآراء والمذاهب البلاغية مماحكات لفظية ساقطة ؛ وأن الخلاف بين عبد القاهر والسكاكي في التقديم والتأخير مثلا جدل ممل ، إذ ليس بينهما نزاع حقيقي في التقديم وإفادته التخصيص أو التقوى ؛ وعبد القاهر عند أستاذنا الجليل اضطرب كلامه في البلاغة ، وكذلك أبو هلال . فإذا ما ذكرت الآراء والمذاهب البلاغية ووازنت بينها في شرحي كان ذلك عملا يستحق النقد من أستاذنا الجليل ؛ وكذلك إذا كتبت بعض بحوث جديدة عن نشأة البلاغة وعلمائها ومصادرها كان ذلك خطأ كبيرا مني لأنه يهدم مذهب أستاذنا الجليل في إصلاح البلاغة ؛ وإذا ما حققت الكلام على متعلقات الفعل ألامها مكسورة أم مفتوحة كان ذلك عملا لا داعي إليه في عصر الذرة ، وإذا ورد ذكر الكناية مثلا في علم المعاني فشرحت معناها في شرحي كان ذلك ذكرا للشيء في غير موضعه ، والبيت :

ومهمه مغبرة أرجاؤه كأن لون أرضه سماؤه

صدره زيادة زدتها أنا على الايضاح كما يرى أستاذنا الجليل والطريف أن البيت موجود كما هو أيضا في شرحه هو على الايضاح

ذلك الوقت لدار فيها ذلك النقـــد فمضت المعركة القزوينية بريئة بفضل حكمة صاحبها ، ونزهته بصفحاتها على غير النقد البرىء .

عبد المتعال الصعيدي

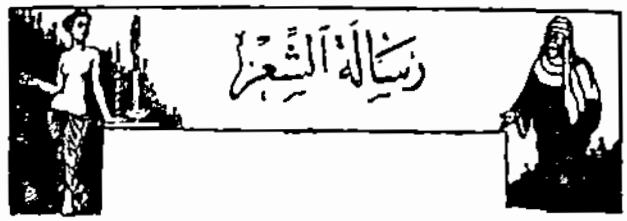

إلى مؤلف كتاب الغدير

للاستاذ محمد عبد الغني حسن

أقامت الرابطة العلمية الأدبية في العراق حفل تكريم للاستاذ العلامة الكبير الشيخ عبد الحسين أحمد الأميني بمناسبة موسوعته الضخمة المسماة بالغدير وقد القيت القصيدة التالية في ذلك الحفل للأستاذ الشاعر محمد عبد الغني حسن ، وفيها يحيي جهد العالم المؤلف ، ويشير إلى وجوب اتفاق المسلمين على إعلاء شان الأسلام مهما اختلفت مذاهبهم وفرقهم.

حي الأميني الجليل وقل له أحسنت عن آل النبي دفاعا
أرهفت للدفع الكريم مناصلا وشهرت للحق المضيم يراعا
وجمعت من طول السنين وعرضها حججا كآيات الصباح نصاعا
وأذبت من عينيك كل شعاعة كالنور ومضاً، والشموس شعاعا
وطويت من ميعون عمرك حقبة تسع الزمان رحابة وذراعا
ونزلت ميدان البيان مناضلاً وشأوت أبطال الكلام شجاعا
ما ضقت يوما بالدليل ولم تكن بالحجة الغراء أقصر باعا

لله من قلم لديك موثق كالسيل يجرى صاخبا دفاعا
يحلو الحقيقة في ثياب بلاغة ويزيح عن وجه الكلام قناعا
يشتد في سبب الخصومة لهجة لكن يرق خليقة وطباعا
وكذلك العلماء في أخلاقهم يتباعدون ويلتقون سراعا
في الحق يختلفون إلا أنهم لا يبتغون إلى الحقوق ضياعا

يأيها الثقة الأمين تحية تجتاز نحوك بالعراق بقاعا
تطوى إليك من الكنانة أربعا ومن العروبة أدؤرا ورباعا
إنا لنجمعنا العقيدة أمة ويضمنا دين الهدى أتباعا
ويؤلف الأسلام بين قلوبنا مهما ذهبنا في الهوى أشياعا

ب — ومن مذهب أستاذنا الجليل في إصلاح البلاغة أن ينشر إيضاح القزويني ويكتب على الكتاب مانصه : « تأليف عبد المتعال الصعيدي المدرس في كلية اللغة العربية » وأن يفصل بين كلام صاحب الإيضاح بعناوين وتطبيقات دون أن ينبه على أن ذلك مزيد على الكتاب .

ح — ويذكر أستاذنا الجليل في شرحه هذا البيت

ظعنوا فكان بكاي حولا كاملا ثم ارعويت وذاك حكم لبيد

وقال إن فيه تعقيدا معنويا، فلفت نظره إلى أنه ليس فيه شيء من التعقيد ، فخطأني وقال إنه ليس هو الذي يقول بذلك وحده ، ولكن صاحب الصناعتين صرح بذلك، فرجعت إلى كلام صاحب الصناعتين ، فوجدته ذكر البيت ، ووصله ببيت ثان هو :

أحمر بجمرة لوعة إطفاؤها . بالدمع أن تزداد طول وقود

وقال أبو هلال : هذا خلاف ما يعرفه الناس لأنهم قد أجمعوا على أن البكاء بطفىء الغليل الخ ، والتذوق للأدب يفهم أن كلام صاحب الصناعتين إنما هو عن البيت الثاني « أحمر الخ » ولكن أستاذنا الجليل صرف كلامه إلى البيت الأول « ظعنوا الخ » فذكره وحده وحذف موضع الشاهد . وبدل كلام صاحب الصناعتين فنسب إليه القول بأن في البيت تعقيدا معنويا ، وأبو هلال لا يعنى أكثر من أنه معنى جديد مبتدع .

وذكر أستاذنا الجليل أن بيت الحطيئة « أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا الخ » قد نسبه السبكي لابن الرومي، فلفت نظره إلى أن السبكي ينسبه المتنبي لا لابن الرومي فرد على بأنه نقل ذلك عن السبكي لوجود ابن الرومي فيه بجوار المتنبي !!!

وقال أستاذنا إنه كان يريد أن يؤاخذني في تكرار التعليق على بيت أبي نواس « رصيرني هواك الخ » وإن كان قلمه قد سبق إلى بيت آخر بجواره !!!

أليس في ذلك وغيره مما لم أذكره يا سيدي القارىء ما يصلح أن يكون دعامة مذهب جديد في إصلاح البلاغة ، ويجب أن تنسبه إلى أستاذنا الجليل، ولا يصح أن يؤلف فيها أحد بعده لأنه صاحب مذهب جديد فيها .

محمد عبد المنعم خفاجي
مدرس في كلية اللغة العربية

عـــــذراء ...

للاستاذ ابراهيم محمد نجا

عـــذراء فى عمر الزهور ... فى روحها ألق البدور
أحـــلامها متع الهوى ... وشبابها ... عطر ونور
مرت عـلى قلبى ، وفى ... نظراتهـا وله مثـــير
فرنا إليهـا ، ثم حن ... وكاد من صـدرى يطير

من أنت يا عـذراء ، يا ... سر الملاحـة والجمال ؟
يا زهـرة لـــا تزل ... نورا تعـانقه الظـــلال
يا من أتيت وللهوى ... شغف بقلبك وابتهـال
ربعقلتيك ضراعـــة ... عما لديك من الملال

لا تطلبى حبى ، فكم ... أخشى عليك من العذاب
ما زلت فى فجر الربيـ ... ـع ، وفى بواكير الشباب
وسـلى العذارى عن هوا ... ى ، ودمعهن هو الجواب
جربنـــه فشربنـــه ... خمرا من اللهب المـذاب

أخشى على الجسد الرشيـ ... ـق توقد اللهب الدفين
أخشى على القلب الرقيـ ... ـق توهج الوله الحزين
أخشى على عينيك من ... دمع الصـبابة والأنين
وأخاف من سهد يطو ... ل إذا استبد بك الحنين

والفكر ... ما أقساه ! نا ... ر فى الدماء ، ولا دخان !
والغيرة الحيرى إذا ... أبصرتنى أمل الحسان
ورأيت أنى لا أخصـــك بالحنين وبالحنان
قلبى تملكه الجمـــا ... ل ، فكيف تملكه يدان ؟!

وأخاف يا عذراء من ... ليـل من القلق الرهيب
ومن الرحيـل إذا دعا ... نى صـوته عمـا قريب
لا تسـأليني عن حيـــا ... تى ، إنهـا رؤيا غريب
إنى كشمس فى السما ... ء ، تسير لكن ... للمغيب !

وأخاف حين يمسنى ... برد الـــلالة والسأم
فأطير عنك مخافـا ... لك فى الهوى نار الألم
أهوى إلى الوادى السحيـ ... ـق ، وأرتقى نحو القمم
بحثا عن السر العميـ ... ـق ، ولا أبالى بالعدم

لا تمزجى أيامك النشـ ... ـوى ، بأيامى الحزينه
ودعى حيـاتك تلتقى ... فيهـا المسرة بالسكينه
إنى أعيش كأننى ... وهج لنيران دفينه
وكأننى وله عـــلى ... كبد موللة طعينه

هذى حياتى : لهفـة ... حيرى ، ووجد وانطلاق
ومدامع مســجورة ... فى القلب ، لكن لا تراق
خوفا عليك من الهوى ... لم يبق لى إلا الفراق
أما أنا فقد احترقـ ... ـت ، وما الهوى إلا احتراق

فدعى الهوى ... إن الهوى ... سر التعاســة والعنـاء
ولقد تنـال به السعا ... دة ، ثم يغمرنا الشقاء
يا ليتنى ما ذقتـــه ... وسلمت من سحر النساء
واليوم — وا أسـفاه — ... لا يجدى التمنى والرجاء !

تبكين مما قلتـه ؟ ... هل قلت شيئا محزنا ؟
وتؤكدين بأن جـ ... ـمك شف من فرط الضنى
وبأن قلبك كان يكـ ... ـتم حبه ، فاستعلنا
وبأن روحك إنمـا ... يحيـا على نور المنى
وبأن عمرك زهرة ... والحب وضاح السنا
وندى ترقرقه الخيـا ... ة على زهور شبابنا
وبأنك اخترت الحبيـ ... ـب ، ولم يكن غيرى أنا
ما دمت قد جربت أشـ ... ـجان الهوى ... هيا بنا !

ابراهيم محمد نجا

ونحب أهل البيت حبا خالصا ... نطوى القلوب عليه والأضلاعا
يجزيك بالأحسان ربك مثلما ... أحسنت عن يوم الغدير دفاعا

محمد عبد الغنى حسن

الأدب والفن في أسبوع

للاستاذ عباس خضر

مصر والعروبة

نشرت صحيفة «المصري» يوم السبت من الأسبوع الماضي مقالين عن مكان مصر من سائر البلاد العربية، لأستاذين كبيرين هما المفكر العربي ساطع الحصري بك، والأديب المصري الدكتور أحمد زكي بك؛ والمقالان يمثلان وجهتي النظر المختلفتين في هذا الموضوع، الأول يقول بالقومية العربية وبأن مصر هي زعيمة هذه القومية، والثاني يقول كما ينطق عنوان مقاله «ما العرب وما الفراعنة، إنما نحن مصريون» ولا أدري هل قصدت الصحيفة أن تملأ الكفتين في عدد واحد أو هو مجرد اتفاق، والمحقق أن كلا من الكاتبين كتب مقاله وهو لا يعلم شيئاً عن مقال الآخر.

وقد تلى الأستاذ الحصري موضوعه بمقال آخر نشرته الصحيفة يوم السبت من هذا الأسبوع. في المقال الأول أعرب عن إيمانه بأن مصر تعتنق الفكرة العربية وأن الطبيعة ودتها بكل الصفات والمزايا التي تحتم عليها أن تقوم بواجب الزعامة والقيادة في إنهاض القومية العربية. وقال إنه لم يقنط من انتشار فكرة القومية العربية في مصر يوما من الأيام، وإن إحجام مصر عن الاشتراك في الثورة العربية التي قامت ضد السياسة العثمانية إنما كان لظروف سياسية وعوامل تاريخية، وهي ظروف وعوامل عارضة كان طبيعيا أن تتغير بعد مدة، كما كان طبيعياً أن يتبدل موقف مصر والمصريين من حركات القومية العربية تبدلا ظاهراً تبعا لتغير تلك الظروف، وأخذ الشعور بالعروبة في مصر يغمر نفوس المصريين شيئاً فشيئاً، حتى اشتد خلال الحرب العالمية الثانية، وبلغ حده الأقصى بعد تأسيس جامعة الدول العربية وعند بدء الحركات السياسية والحربية لإنقاذ فلسطين من براثن الصهيونية. ولكن الإخفاق الذي منيت به هذه الحركات أثر في هذا التيار الفكري تأثيراً سيئاً وعرض فكرة العروبة لنكسة أليمة جداً. إلى أن قال: إني أقدر مرارة الآلام التي شعر بها المصريون بحق من جراء سير الوقائع الحربية في فلسطين ولا سيما صفحتها الأخيرة. ولكني أعرف أن جميع المؤمنين بالقومية العربية شاركوا المصريين في هذه الآلام، وإن المثل العليا القومية لا يمكن أن تتحقق في جملة واحدة. ثم أرجع الأستاذ عدم تقدير هذه الحقيقة — في أهم أسبابها — إلى اختلاط مفهوم «الفكرة العربية» بأعمال «جامعة الدول العربية» في أذهان الكثيرين من الخاصة والعامة. وبعد ذلك أوضح الفرق بين جامعة الدول العربية التي تأسست سنة ١٩٤٥ بموجب الميثاق المعلوم، وبين «الجامعة العربية» التي لا تزال فكرة تعيش في أذهان الذين يؤمنون بوحدة الأمة العربية إيمانا صحيحاً، قائلا بأن كل من يتهجم على فكرة الجامعة العربية من جراء أعمال جامعة الدول العربية، يكون قد ارتكب ظلما فادحاً

وأذكر بهذا رأي الأستاذ الحصري أن القوميات إنما تقوم على اتحاد اللغة قبل كل شيء، وقد فصل هذا الرأي وطبقه على نشوء القوميات بأوربا في المحاضرات التي ألقاها بدار الجمعية الجغرافية الملكية من نحو سنتين، وقد اتخذ من القوميات الأوربية أمثلة خلص منها إلى فكرة القومية العربية التي تقوم على لغة الضاد في جميع بلاد العروبة.

وكان المقال الثاني للأستاذ الذي نشر يوم السبت الماضي تطبيقا لفكرته في أساس القوميات إذ رد به على حديث لسعادة الأستاذ لطفي السيد باشا أدلى به إلى مجلة «المصور» أيد فيه مصرية المصريين مستشهداً باليونان في عسكهم بقوميتهم وتحقيق استقلالهم عن الأتراك.

قال الأستاذ الحصري: إن اليونان لم يندمجوا في الأتراك بسبب اختلافهم عنهم في اللغة وفي الدين، وقد تعرضت اليونان بعد انفصالها عن الدولة العثمانية لخطر الاندماج في الشعوب السلافية في أوروبا التي يجمعها بها المذهب الأرثوذكسي، ولكنها تغلبت على الاعتبارات الدينية واستجابت لنداء اللغة والوطن، فاليونانيون

مدينون بكيانهم السياسي الراهن - قبل كل شيء وأكثر من كل شيء - إلى تمسكهم بلغتهم القومية. وقال: ألا يدل ذلك على أن سعادة لطفي السيد باشا قد حاد عن جادة الصواب عندما استصغر وتجاهل شأن اللغة فساوى بين العروبة وبين التركية خلال دعوته إلى المصرية على أن هناك ما هو أهم من ذلك، فبلاد اليونان لم تستقل كلها دفعة واحدة، فقد استقل سنة ١٨٣٠ أقل من خمس بلاد اليونان الحالية، وظل الباقي ولايات عثمانية ثم أصبحت من الدولة اليونانية فيما بعد، ومع ذلك فان المفكرين وزعماء اليونان ومفكريهم لم يحصروا مفهوم الوطن اليوناني داخل الحدود التي خطتها السياسة الدولية، ولم يقولوا: فلنحصر جهودنا داخل هذا الوطن الذي يرفرف عليه علمنا الرسمي، ولم يتنكروا لهذه الأقطار المختلفة فيخرجوها من نطاق جهودهم الثقافية ومن حدود أهدافهم السياسية. بل ظلوا يحلمون بالوطن الأكبر الذي يضم جميع المتكلمين باليونانية، حتى تكللت جهودهم بالنجاح التام. ألا يظهر من ذلك كله أن تاريخ اليونان الحديث لا يؤكد الرأي الذي أبداه سعادة لطفي السيد باشا، بل إنه - على عكس ذلك - يشهد شهادة صريحة ضد ذلك الرأي ويفنده تفنيداً قاطعاً.

أما مقال الدكتور أحمد زكي بك فقد اشتمل على العناصر الآتية:

١ - تعميد القول بأصول الأمم وأن الفكر الحديث قد اطرح هذه الأصول، واستدل بأمة الولايات المتحدة التي تكونت من أمم مختلفة، ولم يمنعها اختلاف الأصول أن تكون أمة مرتبطة مشتركة الأحساس، يتسابق أفرادها في الذود عنها.

٢ - الجماعات الانسانية تأخذ بالوراثة القليل الأقل من الآباء، وتأخذ بالمران الكثير الأكثر من البيئات: الجغرافية والانسانية والثقافية والتاريخية الزمانية فأثر البيئة يغلب على أثر الوراثة حتى لا يكاد الثاني يبين.

٣ - المصريون لا تصلهم بقدمائهم صلة، فالقبط الذين يقال إنهم أخلص أنساباً لا يتفق بياضهم وخضرة عيونهم مع ما عرف عن القدماء، وليس بينهم وبين المسلمين فروق بينة وقد هضم الوادي كل من دخله

٤ - العربية عنصرية لا ترتكز على حقيقة، فقد اختلطت الأنساب في كل بلادها

كشكول الأسبوع

□ منحت جامعة روما معالي الدكتور طه حسين بك، درجة الدكتوراه الفخرية. وقد ألقى معاليه فيها محاضرة عنوانها «ما هو الأدب الكلاسيكي»

□ تحدث معالي الدكتور طه حسين بك إلى مكاتب «المصري» في روما، فقال إنه يأمل أن يزداد عدد البعثات المصرية التي ترسل إلى إيطاليا لدراسة الآداب والثقافة واللغة الايطالية والتخصص في الفنون، لأن مصر لا تستطيع أن تهمل دراسة فنون وآداب راقية مثل فنون إيطاليا وآدابها.

□ كتب أحمد صفوت باشا في الأهرام يدعو إلى الاهتمام باللغة العربية الفصحى لتكون لغة الكلام بين الخاصة ثم تنتقل منهم الى سائر الناس. وقال إن ذلك لازم لرقي المجتمع ورفع أسلوب حديثه على العامية القاصرة عن تأدية المعاني الدقيقة والمشاعر الراقية، ولتقوية الربط بين الشعوب العربية التي تختلف لهجاتها العامية اختلافا يجعل بعضها غير مفهوم لبعض.

□ سمعت في هذا الأسبوع «ندوة أدبية» مذاعة من محطة الشرق الأدنى موضوعها «الأدب والصحافة» وكانت الندوة مكونة من الأدباء اللبنانيين الأساتذة عبد الله المشنوق وقسطنطين زريق وسعيد تقي الدين، وكان الأخير يتحدث بالعامية: لغة الجبل! فهل كانت الإذاعة خاصة بأهل الجبل؟ وقد كان الأستاذ تقي الدين يرى أن الصحافة تحيى على الأدب ولكنا رأينا أن الجناية عليه هي العامية في حديثه.

□ ورد على ألسنة متحدثي الندوة السابقة تعبير لطيف له مدلول في واقع الحياة الأدبية الراهنة، هو «الإجهاض الأدبي»

□ ذكر الأستاذ جمال الدين الرمادي في مقال بالبلاغ أن أحد المستشرقين، وهو البروفسور باول كاوني، كشف تمثيليات عربية مثلث في القرن الثالث عشر الميلادي، وضمها محمد بن دانيال الموصلي أيام الظاهر بيبرس، وهي ثلاث مسرحيات: «طيف الخيال» و «عجيب غريب» و «المتيم» ولا شك أن هذا كشف أدبي هام، لأنه ينقض ما قرره مؤرخو الأدب من أن الأدب العربي خال من التمثيليات في ما قبل العصر الحديث

□ نظر مجمع فؤاد الأول للغة العربية نموذج معجم فيشر المعروض عليه، وكان قد قرر تأليف لجنة من الأساتذة العقاد وابراهيم مصطفى بك والعوامري بك، لبحث المزايا والمحتويات الصناديق التي أعدها فيشر، لتقرير مدى فائدتها ووجه الانتفاع بها. فكتبت اللجنة تقريرها وهو موضع النظر

□ وافقت لجنة القراءة بالفرقة المصرية على تمثيل المسرحية الشعرية «شجرة الدر» التي ألفها الأستاذ عزيز أباظة باشا، وسيقوم الاستاذ زكي طليمات باخراجها للموسم القادم.

والاسلام رفض الأنساب ورفض الأحساب .

والخلاصة التي انتهى إليها الدكتور زكي بك أن مصر أمة بالذي فيها اليوم من أهل ، كانت أصولهم ما كانت ، مما كما روابط مما يربط الأمم الحديثة ، وأكبر هذه الروابط رغبة أهلها في أن يكونوا أمة واحدة ويداً واحدة على الخير وعلى الشر ، ومن هذه الروابط شركة في أسلوب الحياة الواحدة والتفكير الواحد ، ومن وراء التفكير الواحد الثقافة الواحدة ، ومن وراء العواطف الواحدة التاريخ القريب الواحد »

والواقع أن هذه العناصر التي تحدث فيها الدكتور احمد زكي بك لاتنفي عنا القومية العربية ولا تقتضي انعزالنا مصريين خالصين من العروبة والعرب ، فالمفكر العربي الحديث لايقيم القومية العربية الحديثة على الأصول والأنساب ، فإذا قلنا إننا عرب فليس يلزم لصحة ذلك أن نكون منحدرين من أصلاب القحطانية أو العدنانية . ويظهر من ابتداء المقالة أن الدكتور بنى كلامه على تصريح « الملك الهاشمي » القائل : إن المصريين قوم افريقيون ، فهم لايفهمون العرب ، وليسوا أهلا لتزعم العرب. ولكن الملك الهاشمي إذ يقول ذلك يعزب عن باله مفهوم القومية العربية الحديثة ، وهو الوحدة المبنية على اللغة الواحدة والثقافة الواحدة المستندة إلى التاريخ الواحد . والعربي الحديث ليس هو فقط الذي يستطيع أن يثبت نسبه إلى إحدى القبائل العربية ، وإنما هو الذي يتكلم العربية ويشارك قومه العرب في كل أمة عربية مشاعرهم ويرتبط بروابطهم ، والمثل الذي أتى به الدكتور زكي بك ، وهو الولايات المتحدة الامريكية التي تكونت من أمم مختلفة الأصول ، ذلك المثل الذي ضيقه بالتطبيق على مصر التي تكونت من عناصر مختلفة ، ينطبق في اتساعه وحجمه على قد الأمة العربية التي يرجى أن تتكون من أمم مختلفة الأصول ، والبيئات « الجغرافية والإنسانية والثقافة والتاريخية الزمانية » تعطيها الوحدة والتماسك ، إلى جانب عامل الوراثة الذي يتمثل في اللغة والثقافة ، ولا أقول في الدم والعصب ، فالقومية العربية تتوافر لها البيئة والوراثة جميعا ؛ وقد نفى الدكتور صلة المصريين بقدمائهم ، وهذا حق لأن حاضرنا في كل النواحي بعيد عن ذلك الماضي كل البعد ، وإن كنا أحيانا نتكلف الاتصال به مجاراة للمغربيين الذين يصرون على تمجيد قدمائنا الفراعنة ، لأنهم لايحبون كلمتي « العروبة والاسلام » ولم يتعرض الدكتور بشيء من هذا القبيل بالنسبة لصلتنا بالعرب ، وما كان ينبغي له أن يفعل ، لأن الدكتور زكي نفسه بلغته التي كتب بها المقال وأسلوبه الأدبي العربي ، حقيقة ماثلة شاهدة على تلك الصلة الخالدة ..

ولو لم يكن عنوان مقال الدكتور احمد زكي بك « ما العرب وما الفراعنة ، إنما نحن قوم مصريون » لصلح المقال لتأييد القومية العربية ودخول المصريين فيها ، وذلك بتعديل يسير في بعض الأجزاء مثل إبدال « العرب » بكلمة « مصر » في [illegible] أهل الخ ، فعناصر الخلاصة كلها تنطبق على العرب بما فيها من « رغبة أهلها في أن يكونوا أمة واحدة ويدا واحدة على الخير وعلى الشر » وأبرز هذه الفقرة بالذات لأقول إن هذه الرغبة موجودة يستطيع رؤيتها من ينفذ بصره إلى الحقيقة خلال غبار الأحداث الأخيرة ، الذي أثاره « حكام » بحوافر مطامعهم ورغباتهم الشخصية .

العواذل :

وكتب الدكتور حسين مؤنس بأهرام يوم الثلاثاء من الأسبوع الماضي ، كلمة بعنوان « أهل الهوى » عذل فيها من يهوون العروبة من المصريين ، فاتبع طريقة « العواذل » المعروفة ، في تقبيح الحبيبة والتنفير منها ، والدعوى أنها لاتبادل محبها هواه ، وإظهار الشماتة لما ينال المحب من بعض الأذى في سبيل التمسك بمحبوبه ، وتصوير المحب في صورة الهالك على حبيب يعرض عنه ويزدريه ، ويلتمسون بذلك الحيلة ليجعلوا منها قبة ، وقد اتخذ دكتورنا من قولة « الملك الهاشمي » : إننا إفريقيون — مادة لعذله ، كأن هذا الملك هو سادن العروبة الأوحد ، وكأن كلمته هي الفيصل في أمر العرب ...

وطالما عذل العاذلون ولاموا ، وأهل الهوى ثابتون على هواهم ، لايزيدهم العذل واللوم إلا إمعانا في الحب وتعلقا بالحبيب. ولم يخل حب من عاذل ، فليعذل العاذلون في هوى العروبة ، وليثلبوا الحبيبة ، وليصفوا فتاها بما يمليه الوهم عليهم ، وليفتنوا في ذلك ماشاءوا ، فإن الفتى لن يحيد عن هواه ، ولن يثنيه عن عزمه مايلاقيه من المكاره ، ولا يفزعه من عذل العاذلين إلا أنه يسر الأعداء .

عباس خضر

بسمارك

تأليف اميل لودوج

ترجمة الأستاذ عادل زعيتر

لا يكاد الشتاء يأزف حتى يشخص إلى القاهرة الأديب العالم الأستاذ عادل زعيتر ، ولا يكاد يهبط مصر حتى يتساءل المفكرون والأدباء عما يحمل الأستاذ فى وطابه ، وكانت رحلة الشتاء هذا العام مباركة ، فقد أتحف الأستاذ زعيتر مكتبتنا العربية بكتب خمسة ذات قيمة ، وفيها نفع جليل ، وهى حصيلة عام واحد قضاه فى جهد موصول ودأب غير مقطوع ؛ إنها «بسمارك» و « الحياة والحب » لأميل لودج ، و « السنن النفسية لتطور الأمم » و « روح الجماعات » و « اليهود فى تاريخ الحضارات للفيلسوف الفرنسى غوستاف لوبون .

لقد قرأت « بسمارك » وهو سفر ضخم ، طبع فى مطبعة المعارف ، وتبلغ صفحاته ٧٨٧ صفحة لم أكد أقرأ أولى فصوله حتى رأيتنى مسوقاً إلى الانكباب على مطالعته ، وإذا حدث ان اضطررت إلى التوقف فما أسرع ما يعاودنى الشوق إلى استئناف القراءة . وأشهد أنى أسفت حين أوفيت على نهاية الكتاب وودت لو استطالت بى المتعة .

يعرف القارىء اميل لودوج كاتب عالى شهير ، امتاز بأسلوبه الشائق فى كتابته سير العظماء ، ومن حق القارىء أن يعرف كذلك أن لودوج ، حين يعرض سيرة العظيم ، يحرص على أن يصل بين حياته الخاصة وحياته العامة وصلا محكما ، زهو ينقل القارىء إلى صميم بيئة العظيم فى غير اصطناع أو تكلف حتى ليحسبن القارىء نفسه صديقا للبطل أو هو من ذوى قرباه ، ويكون تجاوب بين القارىء والعظيم ، فيحاوره ويبين ما يرتسم على وجهه ويسير ما ينطبع فى ذهنه !

ولقد رأيتنى ألمس فى الكتاب هواجس بسمارك طفلا ، وأرافقه صغيراً ، واجلس على رحلته الدرسية وأزامله رياضياً وأراقبه موظفا ، وأرى ما أرى من تعاليه وكبريائه يافعاً ، وأحار فى تراوح الرجل بين الالحاد والتقوى ، وبين الشك واليقين ، ورأيتنى أمعن الفكر فى التناقض الذى يتجلى فى طبيعة بسمارك .. تلك الطبيعة التى لا يرتضيها أى عظيم . ثم رأيت بسمارك فى الدبلوماسية وسمعته خطيبا ، تقبعت حياله ، وكان يرمضنى أن ألحظ فى مطلع حياته مناوأته للاحرار ، وتزعته البروسية الاقليمية ، وكدت أنحاز إلى خصومه لولا ما كان يجذبنى إليه من إعجاب بشجاعته وإقدامه ، ولولا تلك المتعة التى كنت أظفر بها حين أقرأ رسائله التى اتسمت بالبيان المشرق والقول الساحر ووصفه البليغ تلك المحن النفسية التى كان يعانيها حين يختلف والملك والملكة وولى العهد والشعب والضباط .. ثم قدرته سياسياً بارعا حين غدا سفيراً لبلاده فى بطرسبرج فباريس ، وأعجبت أى اعجاب بدوره فى قضية شلزويج وهولشتاين وما كان من أمره فى حرب النمسا ؛ وأكبرته حين قال قولته المشهورة : « أعرف أننى ممقوت ولكن الحظ متقلب تقلب رأى الناس ، وأجازف برأسى ، وألعب لعبتى وإن أسفرت عن سوق إلى المشنقة ، ولن تبقى بروسية ولا ألمانية كما كانتا ولا بد لهما من سلوك تلك السبيل وصولا إلى ما يجب أن تكونا عليه ، ولا تجد سوى هذه السبيل ! » .

وجاء نصر الله فى سادوا ووثبت الوحدة الألمانية أشواطاً ، ورأينا عبقرية بسمارك فى حرصه على تجنب ما ينكأ قروح النمسا من الذكريات الجارحة ، وأخذه النمسا المغلوبة بالرفق والمهادنة ، ليحول دون توثيق صلاتها بفرنسة ، ذلك لأنه أبصر فى الأفق حرباً أخرى سيحمل عليها طوعاً أو كرهاً ... ورأى التاريخ فى أعقاب ذلك من شجاعة بسمارك وصموده لتهديدات المجلس وريب الملك ومعارضة الملكة وأركان القصر ودسائس السفراء ووسوسات المثالين ما دون مهه أن هذا العظيم رجل يخضع خياله لواقعيته فيزن كلامه ويهيىء أفعاله ، ويؤثر عظائم الأمور على الصور ، مستعداً للعمل مع أية أمة وأية دولة إذا ما لاءم هذا

هدفه ورأى بسمارك بعد سادوا أن المانيا لن تظفر بوحدة أوسع نطاقاً بغير العنف أو بغير خطر مشترك يثير غضب الألمان كلهم، فأعد العدة لحرب السبعين ... ثم كان الفتح المبين فى سيدان وتوج فى باريس قيصر بروسيا امبراطوراً لألمانيا الوحدة فى احتفال وصفه لودوج وصفاً أثار فيه الألم لما لقيه بسمارك فيه من جحود سيده. ومن هو بسمارك المجحود المنكور. إنه «الرجل الذى يلاعب الدول العظمى فى أوروبا ملاعبة الحاوى الماهر» إنه الرجل الذى رأيناه حديدياً فى الشؤون الداخلية وامرن الدبلوميين كافة فى الصلات الخارجية. وكان لودوج يحلل خلال ذلك نفسية العظيم وآراءه فى الكنيسة والبيت والطبيعة والتاريخ وولعه بالغابات والكلاب، وسيأخذ القارىء العجب من تنبؤات بسمارك واستنتاجاته حول المستقبل حتى ليظن انه كان يرى بنور الغيب حين قال عن روسيا: «فالثورة والجمهورية أمران قد يلمان بروسية فى أقرب وقت، وفى روسيا أناس كثيرون يعلقون آمالهم على كارثة حربية تصاب بها تخلصا من النظام القيصرى».

والقارىء يخرج من مطالعة الكتاب قائماً أن ألمانيا لو أخذت بآراء بسمارك وسلكت، بعده، سياسته لما أصيبت بما أصيبت به فى الحربين العالميتين الكبيرتين ... ويقنع القارىء كذلك، أن من واجب قادة الحركة القومية، وحملة الفكرة العربية، ودعاة الوحدة العربية أن يقرأوا كتاب بسمارك بانى الوحدة الألمانية، ففيه دروس وعبر. وأحب أن أنصف الأستاذ المعرب، فأشيد بالجهد العظيم الذى بذله فى نقل هذا السفر الضخم إلى لغة الضاد فى بلاغة ورواء وفتنة، وأن أنوه باشتقاقاته اللغوية الموفقة وبقدرته على اكتشاف اللفظ الذى يغنى عن الجملة، وأن أشير إلى أنه أول من قال دبلمى بدلاً من دبلوماسى أو دبلوماتى، وكلاسى بدلاً من كلاسيكى، والبلطى بدلاً من البلطيكى، فأرجع كل كلمة إلى أصلها واجتنب تكرر النسبة هذا التكرر الذى لا يتنزه عنه كبار الكتاب.

وإذا كان لنا ما نأخذه عليه فهو إعراب فى كلمات قليلة فى الكتاب لها مايماثلها فى العربية معنى وما يفوقها سلاسة. وبعد فإننا نعتقد ان الأستاذ الجليل عادل زعيتر قد خدم العربية وزود — وحده — مكتبتها بما تنوء بمثله عصبة من الأدباء والفضلاء ذلك لأنه يترجم عن الكتب مالا تجد لها مثيلات فى اللغة العربية، ومالا ينتظر أن يؤلف مثلها كتاب العربية، وفى لغة ان لم تكن فى مستواها أعلى من الأصلية فليست دونها فى حال ... فمن حقه إذن أن نهنئه بما أصابه من توفيق عظيم. ومن حقنا أن نتطلع دائما إلى المزيد من ثمرات جهده الفذ فى إعجاب وتقدير.

«عربى»

تلخيص كتاب النفس

للفيلسوف ابن رشد

نشره وحققه الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى
مطبعة مصر — القاهرة ١٩٥٠

للاستاذ محمد عبد الغني حسن

لاانكر أن نشر أثر عربى قديم يحمل من المعنى اللغوى لكلمه النشر مايحمله البعث بعد الموت من معان وما أحوجنا اليوم إلى الانبعاث من جديد ... وما أحوج ميراثنا العربى العتيق إلى أن تزاح عنه الأكفان، وينفض غبار السنين من فوقه، فأن العروبة اليوم تقف فى ساحة النشور.

وقد كتبت عن هذا الكتاب الجديد للصديق الدكتور الأهوانى كتابة باعدتها عن محيط الصداقة، وأدخلتها فى دائرة الصدق، خشية أن يضيع شىء منهما على حساب صاحبه. وما أظن فى الذى فعلت إخلالا بحق الصداقة، أو إغفالا لأمر المودة. وما أظن الدكتور الأهوانى إلا راضيا بما صنعت، فقد عودنا دائما أنه يحب سقراط ولكنه يحب الحق أكثر منه.

و الكتاب جوانب ما كان يتسع لها مقام محدود فى مقال واحد، فأن هذا الكتاب هو فى الحق خمسة كتب فى كتاب واحد، وما ظنك أيها القارىء الكريم بخمسة مخطوطات فى الفلسفة الإسلامية أتيح لها أن ترى النور دفعة واحدة فى كتاب

واحد ؟! اليس من حق هذه الكتب علينا - وهي لأربعة من كبار فلاسفة الإسلام - أن نقف معها ونطيل الوقوف ولا نجد في ذلك الوقوف بأسا ؟ فان الشعراء كانوا يقفون على الأربع الأدراس ولا يجدون في أنفسهم حرجا مما يصنعون ، ولا بأسا فيما يفعلون. ونحن هنا - أمام هذه المخطوطات العربية الخمسة - نقف على أطلال من الفلسفة الإسلامية أعادها النشر شيئا جديداً ، ورد [illegible] وقد نضر التحقيق شبابها ، وأعاد لها رحابها ، فنقبل ذا الجدار وذا الجدار ، لا حبا في المكان ، ولكن شغفا بالسكان ... وما السكان هنا ! إلا تلك المعاني الفلسفية التي تعبر عن تصور فلاسفة المسلمين للنفس والعقل ، وكيف اتصلت العقول بالأجسام .

وأول هذه الرسائل تلخيص كتاب النفس لابن رشد ، وليس التلخيص للدكتور الأهواني ولكنه لأبي الوليد محمد بن رشد نفسه ! ومعنى هذا أن وراء هذا الملخص مطولا ، وأن خلف هذا الموجز محيطاً ، ويدل عليه قوله . (وهذا كله قد بينته في شرحي لكتاب أرسطو في النفس ، فمن أحب أن يقف على حقيقة رأيي في هذه المسألة فعليه بذلك الكتاب) . ونبحث نحن عن هذا الكتاب ، وتمنى النفس أن نجد فيه من البسط للرأي والبيان في الشرح ما تحل به طلاسم التلخيص فاذا الدكتور الأهواني ييئسنا من هذه الغاية ويقطع منها مناط الآمال ويقول (ولم نعثر على هذا الكتاب في العربية) . فاذا قام بخاطرك هذا التساؤل الآتي : ولماذا لا نترجم هذا الكتاب المطول في النفس عن اللاتينية ؟ وجدت جواب الدكتور الأهواني يرد على هذا التساؤل بقوله : (والرجوع إليه في الترجمة اللاتينية لا يخلو من التضليل ، لأن التراجم اللاتينية كثيرا ما ابتعدت عن الأصل ولم تكن أمينة في النقل) . وهذه التهمة الخطيرة للتراجم اللاتينية لا أجرؤ على التسليم بها ولا أدعي لنفسي الدفاع عنها ، لأنها مما لا يصل اليه جهلي المطبق باللاتينية .

ولست والحمد لله لاتينيا ، ولا أمت إلى اللاتين بعرق ، فكل ما يجري في دمي عربي صميم . ولكني أكره الاتهام الجزاف لغيري تقية أن أكون أنا نفسي موضعا للاتهام ! ولا زلت أذكر أن كثيرا من التراجم العربية للفلسفة اليونانية كان كثير الفساد والقلق والغموض ، حتى لقد باعد ذلك بين التراجم العربية وبين أصولها اليونانية ، وحتى أصبحت هذه التراجم بعيدة عن الناس غريبة عليهم ، وحتى ذكر أحد تلامذة ابن رشد عن أستاذه أنه قال : (استدعاني أبوبكر بن طفيل يوما فقال لي . سمعت اليوم أمير المؤمنين يشكو من قلق عبارة أرسطاطاليس أو عبارة المترجمين عنه ، ويذكر غموض أغراضه ، ويقول : لو وقع لهذا الكتاب من يلخصه لنا ويقرب أغراضه لنا لأن ذلك فهما جيدا لقرب مأخذها على الناس ، فان كان فيك فضل قوة لذلك فافعل . وإني لأرجو أن تفي به ، لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك ، وقوة نزوعك إلى الصناعة . وما يمنعني من ذلك إلا ما تعلمه من كبر سني ، واشتغالي بالخدمة ، وصرف عنايتي إلى ما هو أهم عندي منه .. قال ابن رشد : فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم أرسطاطاليس)

فابن طفيل يشكو بلسان أمير المؤمنين من قلق التراجم العربية لأرسطو وغموضها ، وابن رشد يقر اقرارا ضمنيا بالشكوى بدليل اقدامه على تلخيص ما لخص من كتب المعلم الأول . ولعل شيئاً — قليلا أو كثيرا — من الاعتداد بالنفس هو الذي حمله هذا الحمل من التلخيص حتى يكون له فضل تقريب الفلسفة من الأفهام بعد أن باعد الغموض بينها وبين الناس . ولكني أخشى أن ابن رشد كان في التلخيص أكثر غموضا مما كان غيره في التطويل . ! ولعله نسي قول ابن طفيل له : « يقرب أغراضها بعد أن يفهمها فهما جيدا » وآفة ابن رشد في هذا الغموض إما أن يكون مأتاها من ناحية فهمه أو من ناحية مقدرته على التفهيم ! وأخشى أن يكون ذلك آفة الفلاسفة جميعاً .

إلا أن الدكتور الأهواني صنع في الحق شيئا لم يصنعه ابن رشد في التلخيص الغامض ! فقد جعل للتلخيص تلخيصاً في المقدمة التفسيرية التي قدم بها بين يدي الكتاب . وهي مقدمة نفيسة وقد زاد في نفاستها أن صديقنا الأهواني استعان فيها بآراء طائفة من كبار المشتغلين بالفلسفة ، مثل « جوبتيه » و « تيري » و « سلسون » و « والاس » و « برهييه » و « دوهيم ».

ولعلك تلاحظ أيها القارىء الكريم أعجمية هذه الخفنة

قصة من الحياة

قلوب من حجر

للاستاذ يوسف يعقوب حداد

كان اسمه (محمود[1]) ولكن الناس ينادونه (أبوشوارب)! ولعل الناس على حق ؛ فهم لا يدعونه بمحمود لأنه في الحقيقة لم يكن محمود الصفات . وكانوا ينادونه (أبوشوارب) لأن خمسة عشر سنتمتراً من الشعر الأسود الكثيف كانت تغطي أعلى شفتيه !

ولو أردت نموذجاً ، صادق التعبير ، لصورة مجرم خطر ، لما ترددت في أن أقدم إليك محموداً ، فهو بعينيه الواسعتين ، وشاربيه الطويلين ، وأنفه الذي يشبه منقار الديك ، وشعر رأسه الكث ، الطويل ، ليبدو لك كما يبدو المجرم الخطر في فيلم من الأفلام المصرية

وفوق ذلك كان يشتغل بالتهريب . وهو عريق في مهنته ، يعرف كيف يضلل رجال الكمارك ويفلت من شباكهم ، فكان ربحه كثيراً ، ولكن مال الحرام للحرام — كما يقولون — فبقدر ما كان (أبو شوارب) يربح من طريق الحرام ، كان ينفق من ربحه على الحرام أيضاً ، حتى لم تبق في المدينة راقصة أو بائعة جسد الا ذاقت لذة دنانيره الدسمة !

والمصيبة أنه كان متزوجاً ، وله من زوجه ثلاثة أولاداً كبرهم في العاشرة ، وأصغرهم في ربيعه الأول ... ولكنه والله لم يكن يدري انه زوج لامرأة ، وأب لثلاثة أولاد ، اللهم إلا ساعة واحدة في كل أربع وعشرين ساعة ! . . فهو في النهار يمارس مهنته في الخارج . وربما في خارج البلد ، وفي المساء يقصد الملاهي والحانات ينشد المتعة بين كؤوس الخمر وأحضان الراقصات ، فاذا عاد إلى بيته في ساعة متأخرة من الليل ، عاد ثملاً ، فاقد الوعي . فيرمي بجسده المتهالك على فراشه وكأنه خرقة بالية . . . وقد لا يعود إليه رشده ، إلا قبيل الشروق ، ساعة يلتف حوله أولاده الصغار ، يوقظونه ليتناول فطوره ، لا هناه الله بفطور !

وزوجه المسكينة قد أذاقها صنوف العذاب ، وجرعها كؤوس العلقم ، حتى باتت المفجوعة تبتهل إلى الله في كل ساعة

(١) ملحوظة : الأسماء المحصورة بأقواس غير خاضعة لقواعد اللغة .

من الأعلام التي أخذ عنها الاهواني . فتجزع أن كتابا في الفلسفة الاسلامية يفيض بهذه الأسماء ، وتسأل نفسك : أليس بين هذه الأعلام علم عربي واحد في ميدان هو في الحق حلية للتراث الفكري عند المسلمين . ولكن الجزع لا يطول بك : لأنك تصادف من مراجع البحث في المقدمة الجليلة للدكتور الأهواني مرجعا ثمينا باللغة الفرنسية للدكتور ابراهيم بيومي مدكور ، طبع في باريس سنة ١٩٣٤ . وعنوانه مترجما . (مكان الفارابي في المدرسة الفلسفية الاسلامية) .

هذه كلمة حق أخرى في تلخيص كتاب النفس لابن رشد الذي أخرجه الدكتور أحمد فؤاد الأهواني مع كتب أربعة أخرى تتصل بالنفس والعقل والاتصال والمعرفة . ومن حق كتبنا القديمة أن لا نستكثر عليها كلمة أو كلمتين في مجلة أو مجلتين . أو أن نمن على محققيها بأن نتهم من الصديق عباس خضر بأننا نتبادل الثناء ونتقارض الإهداء ، ونتقايض التعريف بآثارنا الأدبية . ولو اطلع « العباس » على كتابي « بين السطور » لرآني محاولا قدر جهدي أن انتصف للحق ممن أعرفهم ومن لا أعرفهم من الأدباء والباحثين ، الذين أتشرف بعرض أفكارهم ونقد آثارهم . وكدت لا أذكر هنا صداقة وعداوة ، لأن مراد النفوس الكبيرة أكبر من أن تتعادى فيه أو أن تنغص فيه القلوب ، بذكر بغيض وحبيب ...

محمد عبد الغني حسن

من ساعات يومها ، وتطلب منه ، اما أن يعيد زوجها إلى صوابه، وإما أن يميتها فينتهي في الأرض عذابها ا.. ودموعها ، ما كانت تجف لحظة من مآقيها ا.. كيف لا تبكي ، وهذا زوجها لا يكاد يلتفت إليها أو يحسب حسابا لبيته ولأولاده ؟

كانت تخافه وتخشاه لما عرفت فيه من خشونة وقسوة ، ولكنها كثيراً ما كانت تضيق ذرعاً بأساها ، وينفذ معين صبرها فترمي [illegible] ، أو تلوذ به ، فتلقى من بادئ الأمر إعراضاً ، ثم ازدراء اللكمات ، وينزل على أم رأسها آلاف اللعنات ا.. ولولا أنها كانت تتهز فرصة سكره ، واستغراقه في النوم ، فتمد يدها إلى جيوبه ، تبحث في زواياها عما أفلت من يد الراقصات أو المومسات ، لما كانت تلقى ما تنفقه على أولادها وبيتها !

كانت الزوجة المسكينة تعاني كثيراً من العذاب والأسى والمرارة ، ولشدة ما كانت تعاني جف اللبن في ثديها وطفلها الثالث لا يزال رضيعاً ، فاضطرت إلى الاسراع في فطامه وظل في حاجة إلى اللبن ، وكان غذاؤه بسيطا يعوزه الكثير من العناصر التي تساعد على النمو ، فهزل جسده ، وذبل عوده ، ثم ما لبث ان لحقه السقام ، ولم يعد يكف عن الأنين والتوجع ... وكان كبد أمه يتفتت ، ونياط قلبها يتمزق، حين تسمع أنين ولدها وتعجز عن تخفيف الألم عنه ، وابعاد الأذى عن جسده النحيل وأبوه القاسي القلب ، لا يريد أن يعرف أن ولده يكاد يموت ، وأنه في حاجة إلى الطبيب ؛ لأن ذلك يكلفه مالا ! فراحت المسكينة تحمل ولدها من عجوز إلى عجوز ، تطلب عندهن الدواء الرخيص والشفاء الكاذب !

وذات يوم كنت في مقصورة جانبية في أحد الملاهي ، فرأيته يدخل الملهى مع اثنين من زملائه الأشرار ، واتخذوا مجلسهم في مقصورة مجاورة لي ، فسكتت أصواتهم يتحدثون ، وأراهم يشربون ويعبثون ، حتى قفزت إلى المسرح راقصة فارسية راحت تبدي من فنها الرخيص ما يلهب الحواس وفي جسدها المكشوف ما يسير الشهوات ، فاذا صاحبنا كله عيون وكله آذان ، وإذا هو يبدي إعجابه بالراقصة ويعلن تزميله رفبته في مجالستها ، وفعلا ما كادت الفارسية تنتهي في اداء (نمرتها) حتى أشار اليها أحد الصديقين اشارة فهمت معناها ، فاقبلت متماحكة لاهية ، وجلست على ركبتي صاحبنا (أبو شوارب) فاذا هو يفرط نشوته ، يأمر بزجاجة كاملة من (الويسكي) يشهد الله أن سعرها لم يكن يقل يومئذ عن العشرين دينارا ان لم يزد !

قلت لنفسي وأنا أرقبها من بعيد : « يالها من خبيرة ! انها تعرف دخائل النفوس ، وتجيد قراءة الوجوه . لقد رأت رغبة الرجل ، وأحست بالنار المتأججة فيه ، فعرفت كيف ترضيه ، وكيف تسلبه محفظته المنتفخة بالدنانير .

كنت أرقبها خلسة ، فرأيتها تضع رأسها وشعرها وتدفن عطرها ودلالها في صدر الرجل ، وتداعب بأناملها اللطيفة وجهه وتعرك بلطف أذنيه ، وسمعتها تتحدث اليه بالفارسية وقد رسمت على وجهها صورة صادقة التعبير لغرام عنيف وحب عظيم ، وسمعت أحد الصديقين يفسر (لأبو شوارب) كلمات المرأة الفارسية على أنها غزل وغرام عاصف به ، فانثنى (أبو شوارب) وانتفخت أوداجه ، وتراقصت على شفتيه شواربه ، وما كان منه إلا أن دس بين نهديها بورقة مالية ذات مائة دينار !

وفجأة .. رأيت صبياً صغيرا . اقترب من المقاصير وراح يتفرس في وجوه الجالسين ، فلما وقعت عيناه على (أبو شوارب) اسرع اليه يصيح — بابا ... بابا ... اسرع بربك ... إن أمي لفي حاجة اليك .

ولكن بابا ساعتئذ كان في عالم آخر ... قد أفقدته الخمرة شعوره ، وسلبته الفارسية وقاره ، فأخذها من يدها ومضى بها إلى مقصورة جانبية ليتم معها السهرة ، ولما سمع صوت ولده وهو يبكي ويولول هارباً لفظ من فمه كلمة سباب ثقيلة استأنست بها الراقصة الفارسية — فأطلقت هي الأخرى كلمة مقابلة اتبعتها بضحكة فاجرة وساوت مع صيدها الثمين .

ومع خبوط الفجر الحمراء ... عاد (أبو شوارب) إلى داره ولكنه ما كاد يقترب منه بضع خطوات ، حتى الفى الناس متجمهرين على بابه ، وسمع صراخ النسوة يتعالى من داخله ... فاطلق ضحكة طويلة ، وقال : مات ؟ ... الحمد لله .؟

وتابع سيره من غير أن يدخل الدار !

البصرة - عراق

يوسف يعقوب عداد